# الرحلة

## مدخل

**أيها القارئ الكريم:**

نضع بين يديك هذا الكتاب الذي نعتبره مقدمة لقراءة وفهم التوراة والإنجيل الشريفين. وهما الكتابان اللذان نظن أن البشرية لم تعرف على مدى تاريخها الطويل أعمق ولا أوضح ولا أطهر منهما، واللذان يطلق عليهما معاً اسم الكتاب المقدس.

فكثيرا ما نسمع الكلام عن التوراة والإنجيل، وكثيرا ما نتناقش حولهما، لكن قلما نصادف أحدا قرأهما، وأنصَتَ باهتمام إلى صوت الرب يكلم البشرية من خلالهما. هذا القول ينطبق على العديد من الناس بغض النظر عن خلفياتهم الثقافية والدينية والوطنية. لكنه ينطبق بشكل أخص وأصدق علينا نحن العرب وسكان الشرق الأوسط. فينبغي أن نكون نحن السابقين إلى قراءة هذين الكتابين وفهمهما، لأن الله تعالى أنزلهما مَعاً بين ظهرانينا في قلب الشرق الأوسط والبلاد العربية.

وعندما نهملهما ولا نقرأهما، نشبهُ بالضبط شخصا يمتلك خزائن مملوءة ذهبا وجواهر وأحجارا كريمة، ويرفض أن يفتحها ويستمتع بما أفاء الله عليه من كنوز. لقد أمر الله تعالى بشكل جلي وواضح أن نقرأ كتابه، ونتفكر فيه، ونلقنه أُسَرَنا وأحِبَّاءَنا وأصحابنا. كما وعد سبحانه أن يبارك من فعل ذلك ثمّ عمل بحسب ما قرأ، وأن يرفعه المقام الأعلى.

يقول الله تعالى في توراته الشريفة: «واظب على ترديد كلمات هذه الشريعة، وتأمل فيها ليل نهار لتمارسها بحرص، بموجب ما ورد فيها فيحالفك النجاح والتوفيق». [يشوع 8 : 1]

وقد تلاحظ أن الناس اليوم عندما يتكلمون عن الخالق، يكون فهمهم عادة مثقلا بالعديد من التصورات المتعلقة بأشياء تخص النُظُم البشرية، والتقاليد التي لا علاقة لها بكلمته النقية كما أوحاها لأنبيائه. لذلك حرصنا في الكتاب الذي بين يديك الآن أن نكون أوفياء قدر المستطاع لبنية وخصائص وتعاليم ومنهاج كتاب الله. فما هي هذه الخصائص؟

*** الخصائص الثلاث لكتاب الله:**

**1. إله واحد ولا إله آخر معه.**

هو الكائن من الأزل إلى الأبد. لا يتغير أبدا شخصه ولا فكره ولا كلمته. ما قاله منذ آلاف السنين لأنبيائه لازال قائما إلى يومنا، لا يتبدل حرف واحد منه. إذ نقرأ في التوراة الشريفة «يا رب كلمتك تدوم ثابتة في السماء إلى الأبد». [مزامير 119 :89] وأيضا: «يذبل العشب ويذوي الزهر، أما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد] . «إشعياء 40 :6-8].

إنّ كتاب الله المقدس ينقسم إلى عدة كتب أخرى تؤلف فيما بينها أجزاءه المترابطة، إذ الله تعالى هو الذي ألهم العديد من أنبيائه ورسله الكرام كي يدونوا على مدى فترات طويلة ما أوصاه لهم في تلك الكتب ـ الأجزاء. لكن ينبغي أن نضع نصب أعيننا دائما أن الكتاب المقدس كتاب واحد، موحىً من رب مقتدر واحد، لأن رسالته تعالى ليست بشكل مجمل سوى رسالة واحدة، رغم اضطلاع العديد من الأنبياء والرسل بتبليغها. كما أن هذه الكتب ـ الأجزاء لا تناقض بعضها البعض أبداً، لأنه تعالى لا يمكن أن يناقض ذاته.

يمثل القسم الأول والأساسي من التوراة الشريفة ما أوحي إلى سيدنا موسى عليه السلام. وهذا القسم هو الذي أطلق عليه قديما اسم «التوراة» التي معناها «الشريعة». فالتوراة إذن بمعناها الخصوصي الدقيق تحيل إلى هذا القسم فقط.

لكن التوراة بمعناها الشمولي الواسع كما فهمها العديد من الأنبياء ـ وهو المعنى الذي نتبناه في هذا الكتاب ـ تشمل أيضا الزبور كما أوحي إلى سيدنا داود عليه السلام، وتشمل مجموعة أخرى من الكتب التي أوحيت إلى أنبياء أقل شهرة. هؤلاء كانوا جميعا يتكلمون ويكتبون بوحي من روح الرب. نقرأ في الإنجيل الشريف: «لم تأت نبوءة قط بإرادة بشرية، بل تكلم بالنبوءات جميعا رجال الله مدفوعين بوحي الروح القدس» (2 بطرس 1 : 21) هذه الكتب ـ الأجزاء وصلتنا باللغة العبرية ثم ترجمت إلى المئات من اللغات عبر العالم. والتوراة الشريفة، أي مجمل هذه الكتب، يطلق عليها أحيانا كثيرة أيضا اسم «العهد القديم».

أما بالنسبة للإنجيل الشريف، فقد لاحظنا خلطا كبيراً في فهمه، إذ يذهب البعض إلى القول أن هناك أناجيل كثيرة. وهو قول يتضمن سوء فهم كبيراً. فليس هناك، ولن يكون أبداً سوى إنجيل واحد.

فما معنى كلمة «إنجيل»؟ إنها في الأصل كلمة إغريقية تعني «الخبر السار»، وهي تحيل إلى النبأ السار الذي جاء به سيدنا عيسى (سلامه علينا) وبشر به الإنسانية جمعاء. فالإنجيل بهذا المعنى لا يحيل إلى كتاب معين، بقدر ما يحيل إلى مضمون الرسالة التي بلغها السيد المسيح. ذلك أن سيدنا عيسى (سلامه علينا) لم يترك كتابا مسطوراً، وإنما عَيَّن رسلا كِرَاماً قاموا بتدوين أخباره السارة بإرشاد ووحي من روح الرب. وهكذا أصبح باستطاعتنا أن نمسك بين أيدينا رسالة الإنجيل في صيغة مكتوبة.

لذلك ينبغي ألاّ يختلط علينا الأمر حين نسمع الحديث عن «الأناجيل» بصيغة الجمع. فالله تعالى استخدم أربعة أشخاص للقيام بتدوين وتبليغ رسالة المسيح (سلامه علينا) وهؤلاء الأشخاص هم مَتَّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. كما ينبغي ألاّ نقول «إنجيل لوقا» مثلاً، بل «الإنجيل كما دَوَّنه لوقا». إذ هناك في العمق إنجيل واحد ورسالة واحدة بلغها الله إلى البشر من خلال سيدنا عيسى (سلامه علينا) وما استخدم الله تعالى أربعة أشخاص لتدوين إنجيله إلاّ إمعانا منه في تبليغنا رسالته بشكل أكثر وضوحا وتنوعاً وشمولا ووفاءاً.

وقد وصلنا الإنجيل الشريف باللغة اليونانية، وترجم هو بدوره إلى المئات من اللغات عبر العالم. كما يطلق عليه في أحيان كثيرة اسم «العهد الجديد»

يمكن القول أن التوراة الشريفة والإنجيل الشريف يكملان بعضهما البعض، إذ يعتبران كتابا واحدا ببداية ونهاية محددتين. فقد كلم الله البشر عبر فترات طويلة بطرق مختلفة ومن خلال أشخاص مختلفين، لكنَّ رسالته بقيت واحدة لا تتغير. وستكتشف وحدة وتماسك هذه الرسالة وأنت تطالع تفاصيلها بين دفتي هذا الكتاب.

## 2. الله والتاريخ

ستكتشف وأنت تقرأ أجزاء من التوراة والإنجيل الشريفين أنهما يشتملان على حكايات كثيرة، وأحداث مفصلة من تاريخ البشرية. فقد اختار تعالى بحكمته العظيمة أن يعلن عن نفسه من خلال تلك الحكايات والأحداث. إلا أن الذين لم يتناولوا هذين الكتابين بما يستحقانه من اهتمام. يظنون أن تلك الحكايات إنما هي محض قصص لا هدف لها أو ربما وجِدَت فقط للتسلية، وكأن تبليغ الحقيقة يحتاج إلى دراسات عميقة أو تصانيف دينية معقدة، أو أبحاث أكاديمية وفلسفية. لكنّ من يقولون بذلك هم الذين عقدهم العصر والمدنية والعقلانية الحديثة، فورطوا عقولهم بدل أن يخلصوها، وصاروا أضعف من أن يدركوا أن الحقيقة لا تحتاج في غالب الأحيان إلى أكثر منْ حكاية بسيطة وراوٍ مُلهَم، لأن كل حقيقة هي بسيطة بطبيعتها.

ونحن العرب في كل أرجاء الوطن العربي، وليس فقط في الشرق الأوسط نعرف أهمية الحكاية في تلقين الحقيقة، لأن هذه الأخيرة تكون عندئذ أكثر إقناعاً وقُوةً.

والله، خالق الإنسان، والعالِمُ بدخيلاء نفسه، يعرف أن تلك هي أنجع الطرق إلى قلبه، لأنه تعالى يسلك دائما أبسط السبل للتواصل معنا، وتلك نعمة عظيمة منه. فقد ترك لنا كتابه الضَّاجَّ بروحه القدس، لكن البسيط في آن بساطة الشمس إذ تشرق، والمطر إذا ينزل، والزرع إذ ينمو.

ثمّ هناك سبب آخر أكثر عمقا في اختيار الله تعالى الإعلان عن نفسه بتلك الطريقة. فهو الله الحي اختار الإعلان عن نفسه في الزمان والمكان، أي من خلال التاريخ، ليبين للناس كافَّةً أنه طاعن في القرب منهم، إذ لم يكتف بالكلام معهم من خلال أنبيائه ورسله الكرام، بل كشف لهم عن قُوَّته من خلال ما أجراه أمامهم من أعمال مشهود بها تاريخيا.

إن الحكايات الموجودة في التوراة والإنجيل الشريفين لم تُسْرَد لأجل لذة الحكي وجماله، أو لهدف تعليمي محض، وإن كانت هذه الشروط متحققة فيها بنجاح كبير، بل ينبغي اعتبارها لحظات كبرى وأحداثا عظيمة لا تنفصل بأية حال عن مجمل التاريخ البشري. فقد اختار الله من خلالها الإعلان عن حضوره في قلب الزمان والمكان، والدخول إلى التاريخ من أبوابه الخارقة. لذلك حين نتأمل تاريخ البشرية كما هو مدون في التوراة والإنجيل الشريفين. فإننا ندرك أن حياتنا تسير وفقا لخطة الخالق كما وضعتها مشيئته.

أخيرا يمكن القول أن هذه الحكايات والأحداث والتواريخ مدونة طبقا لتسلسلها الزمني. فالتوراة الشريفة تبدأ بقصة خلق العالم ثم تتبع خطى الرب عبر المسار التاريخي الذي سلكه مع بني إسرائيل وأنبيائهم، وصولا إلى ظهور سيدنا عيسى (سلامه علينا). أما الإنجيل الشريف فيبدأ بسرد وقائع ولادة سيدنا عيسى (سلامه علينا) وينتهي برؤيا عظيمة تصور ما سوف يحدث في نهاية الأزمنة عند مجيء القيامة.

فالكتابان معاً ليسا في الحقيقة سوى كتاب واحد يقودنا من بداية الخلق إلى نهاية الزمن والتاريخ. ولكي نفهم الرسالة بشكل أوضح وأعمق علينا أن نقرأ الكتاب المقدس من بدايته إلى نهايته. لكن ألا يحتاج الأمر إلى وقت وجهد كبيرين؟ أما من سبيل أقصر لفهم رسالة الرب؟

### 3. التأني والدقة في البناء

بصوتٍ دَوِيٍّ كالرعد تشققت الحيطان فجأة، وانهارت فوق بعضها البعض. تطاير خشب الأبواب وزجاج النوافذ شظايا. السقوف انزاحت وانطبقت على الأرض. وواحد واحدا سقطت الشقق فوق رؤوس ساكنيها. لم ينج منهم أحد لأن تلك المساكن الباذخة التي كانت تأويهم تحولت بقدرة قادر إلى كُوَم من الحجارة. كيف حدثت الكارثة؟ كيف انهارت العمارة؟ ألم تكن تبدو في شموخها متينة وقوية؟

بعد إجراء تحقيق دقيق تَبَيَّن أن صاحب العمارة لم يحترم المقاييس والتصاميم المناسبة. فقد اختار أن يغامر بحياة وسلامة البشر لكي يقتصد الوقت والجهد ويربح المزيد من المال. فاحتال لذلك على المقاييس، وغش في المواد والبناء، إذ لم يستعمل الإسمنت الكافي، ولم يضع الحديد اللازم في الأساسات. فأصبحت هذه الأخيرة عاجزة عن احتواء علو وثقل العمارة. ثم إنه لم يضع السواري والأعمدة الضرورية لتماسك الزوايا والحيطان.

باختصار لم يحترم التعليمات المرسومة في تصاميم المهندس، وقرر أن يطبق طريقته التي بدت بالنسبة إليه أسهل وأسرع. والنتيجة آلام ودمار وموت.

يمكن القول أنه كما تعامل صاحب العمارة هذا بإهمال ولا مبالاة مع تصاميم المهندس، كذلك لا يفتأ عدد كبير من الناس يتعاملون بنفس الطريقة مع خُطط الرب في الإعلان عن نفسه لبني البشر. فلكي يربحوا الوقت والجهد يؤسسونَ حياتهم الدنيا والآخرة على الخلاصات السريعة والأقاويل والخرافات، إذ الكثير يكتفون بما يسمعونه عن التوراة والإنجيل، أو بإلقاء نظرة سريعة عليهما.

لكن طريقة الرب الأساسية في تلقين رسالته هي طريقة تدريجية بشكل بَيِّن، إذ يعتمد تعالى التأني والدقة. فهو دائما يضع الأساسات اللازمة، فيما يفتح شيئا فشيئا قلوبنا ليكشف لنا عن ذاته ورسالته. وإذا أردنا العودة إلى مثال البناء يمكن القول أنه تعالى يبنينا بعناية وصبر وأناة، ويرفض أن يسلك السبل القصيرة في ذلك. كما لا يستخدم المواد الرخيصة والرديئة، ولا الوسائل التي تتناقض مع قداسته وكمال ذاته.

إننا نؤْذي أنفسنا كثيرا عندما نتجاهل السبل التي خطها الله تعالى في كتبه الشريفة ،ونستبدلها بسبل من عندنا «سريعة» و«سهلة». فتختلط علينا بذلك الأمور الأشد أهمية. لكن عناية الله تعالى لا تفتأ تثير على الدوام انتباهنا إلى سبله الأفضل، لأننا لن نستطيع أن نفعل مهما عشنا شيئا أحسن ولا أجمل ولا أكثر فائدة ولا أعظم من إتباع سُبُل الرب، والإنصات باهتمام وعمق إلى صوت المعلم.

تبدأ التوراة الشريفة، كما سترى في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب بكشف الحقائق الأساسية والبسيطة، لكن المركزية في نفس الآن، بخصوص الله والإنسان. ويمكن أن نشبه هذه المرحلة بوضع الأسس للبناء ـ لأنه بدون هذه الأسس يصبح البناء عرضة للاهتزاز وغير قادر على الصمود في وجه الزمن.

وبتقدُّمك أكثر في قراءة فصول التوراة والإنجيل الشريفين تتكشف أمامك رسالة الرب وسبله تدريجيا وبشكل أكثر فأكثر وضوحاً، إلى أن تقف في النهاية منبهرا بعمق أمام حكمة الرب وعظمة محبته.

# هذا الكتاب

جريا على منهاج الله الذي اختاره ليعلن عن نفسه في كتابه المقدس، لن تعثر في هذا الكتاب الذي بين يديك الآن على دراسات نظرية أو منظومات مذهبية. سآخذك عبر 36 فصلا، التي هي مجموع فصول الكتاب، في رحلة حول الكتاب المقدس من بدايته إلى نهايته وسيتم ذلك بطريقة «الخطوة خطوة ، «عملا بالمبادئ التي سطرناها أنفاً، وحسب ترتيب الأحداث والأجزاء التي تنتظم الكتاب المقدس نفسه.

يبدأ كل فصل بمقطع من كتاب الله تحرينا فيه الدقة حتى يكون مرجعا في المتناول بالنسبة لمن لا يملك نسخة من الكتاب المقدس، لكننا نشجع كل قارئ أن يتوفر على نسخة منه لأن ذلك سوف يساعده كي يرى بنفسه ويفهم المقطع في سياقه العام.

ثم نُردف كل مقطع بشرح مستفيض لدلالته العميقة ضمن الخطة الربانية التي وضعها الله للكشف عن ذاته. والمقاطع المختارة لا تمثل طبعا سوى جزء ضئيل من مجمل الكتاب المقدس. لكننا حرصنا أن يمثل كل مقطع جزءا من أهم أجزاء الكتاب.

ويتبين من كل ذلك أن الهدف من هذا الكتاب هو إعطاء القارئ صورة مكتملة الوضوح عن رسالة الله عز وجل إلى البشر، إذ بتتبع آياته وأعماله التي أجراها على الأرض،نستطيع مقاربة أهم الأسئلة الوجودية؛ من هو الله؟ ما هو الإنسان؟ ماذا ينتظر الله من الإنسان؟ ما موقف الإنسان من الله؟ ثم على الخصوص ما سبيل الإنسان للتوصل إلى السلام مع خالقه؟

# كلمة لا بد منها

قبل أن نفتح هذا الكتاب سوية، علينا أن نختبر مدى استعدادنا الداخلي. فالتواضع والخشية في التعامل مع كلمة الله تعالى أهم بكثير من المقدرة الفكرية العالية والمعرفة الغزيرة. لذلك فأول شيء

ينبغي أخذه بعين الاعتبار هو الوقوف أمام كلمة الله لا لكي نحَاكِم بل لأجل أن نخضع نحن للمحاكمة. إذ نقرأ في الإنجيل الشريف: «ذلك لأن كلمة الله حية، وفعالة، وأمضى من كل سيف له حدان، وخارقة إلى مفترق النفس والروح والمفاصل ونخاع العظام، وقادرة أن تميز أفكار القلب ونياته». [العبرانيين 4 : 12].

فإذا شبهنا الوضع بقاعة محكمة من محاكم البشر، يمكننا أن نتصور الله وكلمته جالسان على كرسي القاضي يحاكمان أفكارنا وأقوالنا وأعمالنا، وليس العكس. فكلمة الله في الغالب بسيطة وواضحة .لكن إذا صادفنا مقطعاً لم نستطع فهمه، أو وجدنا أنه لا يلائم مسار تفكيرنا، علينا عندئذ التحلي بالأناة والتواضع، لأنه مثلما السماء شديدة البعد عن الأرض، كذلك أفكاره تعالى بعيدة جدا عن طبيعة تفكيرنا. كما أن حكمته وفهمه أعلى بكثير مما تستطيعه عقولنا الصغيرة، إذ تفكيرنا هو الذي ينبغي أن يتغير لا تفكيره سبحانه. نقرأ في الإنجيل الشريف: «ليكن الله صادقا وكل إنسان كاذباً» [الرسالة إلى مؤمني روما 3 : 4] .

الأمر الثاني الذي يجب أخذه بعين الاعتبار هو التحلي بالثقة في الله تعالى،لأن كل قوة هي مستمدة منه، وكل اعتماد هو عليه. فقد أوحى إلى أنبيائه الكرام رسالته وأتمنهم عليها. ووعد أن كلمته لا تبديل لها، حيث نقرأ في الإنجيل الشريف: «الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض، لن يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الشريعة، حتى يتم كل شيء» [متى 5 : 18] إنه تعالى فَعَّال لما يقول، لا يشوب قوله، جل شأنه، كذب ولا بهتان. فهو القادر على كلِّ شيء لا يصعب عليه الحفاظ على كلمته وصيانتها على مدى الأيام.

والقرآن الكريم يؤكد هذا القول تأكيدا إذ يقول بشكل لا لبس فيه أن لا أحد يستطيع تغيير كلامه أو العبث به. نقرأ في سورة الأنعام . ونقرأ في سورة يونس: [يونس: الآيتان 63، 64] كما نقرأ في سورة الكهف كما أنه تعالى يحذر بشدة كل من تسول له نفسه تبديل كلماته أو العبث بها، حيث يقول في آخر مقطع من الإنجيل الشريف «وإنني أشهد لكل من يسمع ما جاء في كتاب النبوءة هذا: إن زاد أحد شيئا على ما كتب فيه، يزيده الله من البلايا التي ورد ذكرها، وإن أسقط أحد شيئا من أقوال كتاب النبوءة هذا، يسقط الله نصيبه من شجرة الحياة، ومن المدينة المقدسة، اللتين جاء ذكرهما في هذا الكتاب» (الرؤيا 18: 22 ــ 19).

وبما أنه قد أصبح الآن بما لا يقبل الشك أن تبديل كتاب الله لم يكن أبدا ممكنا في أي وقت من الأوقات، وأنه الحقيقة التي لا يماري فيها أحد، فقد أصبح لزاماً علينا أن نضع ثقتنا الكاملة في التوراة والإنجيل الشريفين، ونتخذهما سبيلنا إلى الحياة الكريمة في الدنيا والآخرة.

فقد تم الحفاظ على النسخ المخطوطة من كافَّة أجزاء الكتاب المقدس في لغاتها الأصلية بمختلف المتاحف والمكتبات إلى يومنا هذا، حيث أن هناك ما يربو على 5000 مخطوطا من العهد القديم والجديد سواء في لغاتها الأصلية أو مترجمة. وهي كلها في متناول من أحب الإطلاع عليها بتلك المتاحف والمكتبات. وقد ذهبت قدرة الله التي لا توصف إلى أبعد من ذلك حينَ جعلت آلاف الترجمات تبقى متفقة كلها مع المخطوطات الأصلية القديمة. وهذه النسخ التي تعد بالآلاف سواء من التوراة، أو الإنجيل أو الزبور كُتبت كلها قبل بداية التقويم الهجري بمئات السنين، ولم يحدث أبدا أن

افتقد جزء واحد منْ تلك الكتب، لأن نعمة الربّ أبقت عليها جميعا حتى نستطيع الإطلاع عليها في مجملها وفهم رسالته بالوضوح الذي أراده سبحانه.

# البدء

كان الصمت عميقا، والظلام شديد الكثافة حتى لتكاد اليد تلمسه، ولم يكن من شيء موجودا البتة. صمت في صمت، وظلام في ظلام وفراغ لا تحده العين. ثم فجأة في قلب هذا العدم اللا متناهي، وسط هذا الكون المفتقد إلى النور، نطق الله تعالى، فانبثقت لِتو السماوات والأرض. من اللاشيء صار شيء، والفوضى تحولت إلى نظام متماسك. فماذا حدث يا ترى؟ ما معنى هذا التحول الهائل المفاجئ؟... لقد بدأ الخالق عمله العظيم الذي سيكون الإنسان هدفه وغايته، وهاهي روح الله ترفرف فوق الأرض الغامضة المعالم، منتظرة مرحلة أخرى في عمل الخلق.

لم يكن ذلك عملا بالمعنى البشري للكلمة. كان فعلا شديد العفوية لم يتطلب منه تعالى أدنى جهد. لقد كان يقول للشيء كن فيكون... فأشرق نور الله مخترقا الظلمة مهيئا العالم للمرحلة القادمة من الخلق. فكان ذلك بالفعل بداية الزمن، ليس بالنسبة لله الذي يوجد في قلب الأبدية ولكن بالنسبة للخليقة المحدودة في الزمان والمكان. وفي هذه المرحلة من الخلق فصل الله الليل عن النهار أي الظلام عن النور وكان ذلك خيراً لأنه من الله جل شأنه.

بعد ذلك انفصلت الأرض عن السماء واليابسة عن البحر وكان الله بذلك يهيئ المكان لمجيء الإنسان. لم يكن للبحر أن يتجاوز الحدود التي رسمها الله له رغم أمواجه العاتية التي لم تفتأ تتلاطم بعنف على الشاطئ. وكان ذلك خيرا أيضا لأنه من الله. ثم من الأرض البكر انبثقت النباتات والأشجار. نباتات وأشجار الفردوس الخضراء التي تسر النظر وتلذ للأكل. كانت غزيرة تنمو بسخاء لا يوصف لأن الأرض لم تكن تزال بكرا حديثة الخلق.

ومن خلال السديم الذي كان يلف الكون أشرقت شمس أول صباح حاملة الدفء للأرض العذراء، مانحة نباتاتها النمو والوفرة الذيْن صنعا بهجة وجمال الفردوس، وجعلا منه مكانا جديرا بأن تطأه قدم الله. ومع هبوط الليل لم يكن ليفقد ذلك الفردوس شيئا من جماله، حيث أن القمر والنجوم كانت تشرف على المشهد بأكمله ناثرة ضوءها المتلألئ الغزير فوق بساط العشب الأخضر.

ثم بدأ البحر ينبض بالحياة: مرجان وأسماك. زواحف وحيتان، وفوق وجه الغمر رفرفت الطيور وهي تبحث عن قوتها اليومي، محلقةً مع ريح البحر، مستمتعة برشاقة صعودها وهبوطها في الأجواء الفسيحة العالية. كان مشهدا موصوفا بالكمال، لأن كل شيء يصنعه الله تعالى لا يمكن أن يوصف بأقل من ذلك. فكل مخلوق كان في حد ذاته مديحاً للواحد الأحد الذي خَلَقَه. وكل كائن جديد بمثابة سطر آخر في ترنيمة واحدة عظيمة تسبح باسمه.

وخلق الله بعد ذلك الحيوانات جميعا كي تتعايش في سلام تام مع بعضها البعض داخل فردوسه العامر. الصغير يعيش في انسجام تام مع الكبير .والضعيف يسير جنبا إلى جنب مع القوي. وكان العالم جميلا يبهر عين الرائي بجماله الذي لا يقاس: جبال خضراء شامخة، وغابات عذراء كثيفة، وبحار مترامية هادرة. وصحاري متراقصة الكثبان. لكن الخلق لم يكن قد أكتمل بعد. كان المسكن الذي أُعِدَّ وأُثِّث بعناية يفتقر إلى ساكن.

وتواصل إيقاع الحياة الجهير آخذا في التصاعد شيئا فشيئا حتى وصل إلى نقطة معينة أمر عندها الله أن تتم خليقته فنطق جل شأنهُ قائلا: «لنخلق الإنسان على صورتنا، كشبهنا، وليحكم في الأرض» يا لجلال أمر الله هذا! يا لعظمته! يا لتبجيل الذي خص به الإنسان من دون جميع خلائقه. هل يمكن أن يسمع إنسان قول الله هذا دون أن تختلج حواسه جميعا ويصاب للحظة بالذهول؟ لقد أمر الله أن يُخْلق الإنسان في أحسن تقويم ويُجْعل خليفة له في الأرض. نعم! من أجل محبته العظيمة له أمر أن يُخْلق الإنسان شبها له. لكنه لم يكن شبها في الجسد، بل في الروح لأن الله روح. لذلك يحتوي الإنسان الأبدية في قلبه، ولا يحقق ذاته إلا حين تستطيع روحه العيش في سلام مع الخالق.

وكما الله تعالى يفكر ويتكلم، يحب ويكره، كذلك الإنسان الذي رُفِعَ مقاماً أسمى من الصخر والنبات بل وحتى الحيوان. إنه أقرب مخلوق شبها بالخالق، ولا عَجَب! فهو ذروة الخليقة والتعبير الأسمى لمحبة الله تجاه خلقه. لم يكن يشوب هذا الإنسان الأول من ضعف. كان انعكاساً صرفاً للصنعة الإلهية المتقنة. ولم تكن حواء كأنثى أقل مقاما من آدم أمام محبة الله العظيمة هذه. كانا معا يذرعان الجنة محروسين بالعناية الإلهية التي لا يحدها أبدا شيء. كانا خليفتي الله اللذين أورثهما جنته ليعتنيا بباقي مخلوقاته ويستمتعا بخيراته.

يا للحياة الرائعة العجيبة التي ظل آدم وحواء يعيشانها دون أن تشوبها شائبة من ضعف أو مرض مثلما هو حال البشرية اليوم. لقد خلقهما الله دونما نقص يذكر. لا تساور رأسيهما الأفكار الشريرة، ولا يكذبان ولا يخادعان. يجهلان المعاني والمفاهيم الشريرة مثل الأنانية والخيانة والسرقة. ولا يفعلان أي شيء أبدا يدنس قداسة الخالق. كان كل ما يفكران ويرغبان فيه، ويفعلانه طيباً في نظر الإله. ولم يكن ليدركهما وهن أو شيخوخة، لذلك كان الموت مجهولا هناك، لأن الجنة مكان للكمال المطلق. ويمكن أن نتساءل لماذا خلق الله آدم وحواء بكل هذا الكمال؟ والجواب هو أن الله كله محبة ولاشيء سوى المحبة، لذلك قرر أن يسبغ نعمة كماله المطلق عليهما فخلقهما على صورته وكفاهما شر النقص والضعف والموت.

حياة سعيدة ومريحة تلك التي عاشها آدم وحواء داخل هذا المجال الذي هيأه الله لهما ولذريتهما. حياة كلها انسجام مع بعضهما البعض، خالية من كل مشاعر الغضب أو الخيبة. كانا يعيشان على المحبة التي أسبغها الله عليهما وجعلهما يتبادلانها فيما بينهما. وكانت كل شجرة مورقة أو زهرة فواحة تذكرهما بفيض المحبة الإلهية. كما كان كل جبل شامخ أو غدير متراقص المياه يذكرهما بقوة الخالق وعنايته اللا متناهية.

" ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً» هو وحده أبدع النظام والجمال والاتساق من قلب ما قد كان عَدَماً وظلاما وفوضى .ثم إذ فرغ من عمله استراح لكي يتفكر في جمال صنعته، وبذلك أصبح يوم استراحته مقدساً.

وأستشعر آدم وحواء بدورهما هذه الاستراحة. فأحسا بالأمن والطمأنينة في ظل كل هذه النعمة، ولم يكن ليساورهما أبدا خوف بشأن الغد. لم يكن ليساورهما قلق بشأن ما سيأكلان أو سيشربان لأنهما كان واثقين من رعاية الخالق لهما فعرفا الراحة العميقة والسلام التام في ذلك العالم الذي خلقهُ الله كاملا لأجلهما.

# الاختيار

خلق الله الإنسان شبها له في الروح ولكنه منحه أيضا هيئة جسدية وشكلا ماديا محسوسا. ذلك أنه كلم العناصر الأصلية للأرض فاستوت على التو بشراً. تماما مثل الخزاف الذي يتناول عناصر الأرض ويمزجُها ببعضها ثم يصوغها داخل قالب معين لكي تتحول بعد ذلك إلى شيء نافع وجميل.

لكن هناك بالطبع فرقاً شاسعاً بين عمل الخزاف وعمل الله. الله نفخ من روحه في الإنسان ووهبه نفحة الحياة. وما من أحَدٍ سواه يستطيع فعل ذلك مهما حاول. فلم يكن الإنسان بذلك مجرد جماد أو حيوان، بل خلقاً فريداً حيًّا يختزن الحياة في امتلائها الكامل ومعناها العميق. كان تجسيدا رائعا للجمال الذي نفخه الله في الحياة، ورمزا لقوته الخلاقة. وهل هناك مثال أبلغ من حفنة طين تتحول فجأة بواسطة محبة الله العظيمة إلى تحفة ربانية متقنة الصنع.

ثم أراد الله بعد ذلك إظهار محبته للإنسان وَمَدى عنايته به، فجعل له جَنَّةً هي الفردوس الأصلي حيث عاش أول مرة. اهتم بآدم أشد اهتمام.، وأحبه، وفضله على العالمين. كما لبى كافة رغباته. وهل هناك أكثر من ذلك الفردوس البديع الذي وهبه إياه كي يعيش في سلام تام بداخله. إلاّ أنه تعالى وضع في وسط هذا الفردوس شجرتين اثنتين، واحدة هي شجرة الحياة وفيها الثمر الذي يمنح الإنسان الحياة الأبدية، والثانية هي شجرة معرفة الخير والشر. والتمييز بين الخير والشر يعني اختبار هذين الأخيرين لأنه لا يمكن أن نميز حتى نختبر. فما علاقة ذلك بآدم؟ لنتابع الحكاية!

كان الفردوس ينبوع الحياة الأصلي. من هناك كان يتدفق نهر يمنح نبض الحياة لكل العالم المحيط. فلنتصور للحظة العيشة الرغد التي كان يعيشها آدم هناك. ثم لنتساءل ألم يكن سهلا على آدم أن يفهم مقدار محبة الله له وعنايته الفائقة به.

لقد قلده الله الأمانة، فكان عليه أن يعتني بالفردوس مثلما هو تعالى يعتني بالكون قاطبة، لأنه خليفته كما سبق الذكر. الله أراده أن يجعل من الفردوس مملكة يسود فيها ومسؤولية يحفظها. ولم يكن ذلك صعبا على آدم بتاتا، فقليل جهد كان يكفي لكي تجود الأرض بمحاصيل غِلالٍ لا تحصى.

لكنه أوصاه أيضا وصية. ويا لها من وصية! كانت أشبه بصك حريَّة. إذ كانت تتلخص في كون آدم حرّاً أن يأكل من كل شجر الجنة ماعدا شجرة واحدة هي شجرة معرفة الخير والشر. وكان على آدم بناء على أمر الله ذلك ألا يقرب ثمر تلك الشجرة أبداً. فقد رأينا مدى السعادة التي كان يعيشها في جنة الفردوس حيث لا مشاكل ولا ألم ولا مرض. وأخبره الله أيضاً أنه إذا عصى أمره بخصوص

الشجرة فإنه يموت موتا، في الروح أولاً، ثم في الجسد بعد ذلك، حيث سيبدو جسده حيا لكن روحه ميتة بداخله وفقا لشريعة الله العادلة. العصيان سيترتب عنه انفصال روحي موجِعُ بين الإنسان وربه. وهذا الانفصال سيترتب عنه نضوب مهول في الروح يؤثر بدوره على الجسد الذي لن يفتأ بعدئذ يذوي ويضمحل إلى أن ينطفئ ويموت. الرباط الحميم المقدس بين الله والإنسان سينفرط ويحل محله حزن لانهاية له.

كانت وصية الله واضحة لا لبس ولا غموض فيها، حيث أمر آدم حَرْفِيًّا ألا يقرب شجرة الشر مُبَيِّنًا له مغبة العصيان الذي سوف يؤدي به إلى موت محقَّق. كما أخبره أن خطيئة واحدة فقط كافية لإحداث القطيعة معه، ومن ثم إقصائه من حضرته وجعله يعيش جحيم هذا الإقصاء فيما تبقى له من أيام على الأرض. لكن لماذا هذه الصرامة من طرف الله تعالى في تطبيق شريعته؟ الجواب هو أنّ الله قدوس، وقداسته مطلقة بكل ما تحمله عبارة القداسة المطلقة من معنى. لذلك لا يسمح تعالى بأن تشوب قداسته شائبة، ولا يتغاضى عن أي شكل من أشكال الخطيئة في حضرته. وكما أنه كامل في محبته وعلمه وقدرته فهو أيضا كامل في قداسته. لهذا لا مكان للخطيئة في مقامه لأن ذلك يتعارض مع كمال شخصه.

لكنه أحب مع ذلك أن يمنح الإنسان حرية الاختيار. وأراد لهذه الحرية أن تكون رهينة بالحدود التي رسمتها قدرته. فمنحه هذه الحرية لكي يستطيع من خلالها أن يصبح إنسانا بكل ما في الكلمة من معنى، لا دمية متحركة بُرمِجَت لكي تفعل ما هو مناسب وحسن. هكذا أصبح آدم حرا أن يختار محبة الله وخدمته. ولو لم يكن الأمر كذلك لما سمت محبته إلى مرتبة المحبة الحقيقية، إذ كيف يمكن أن يُحب بحق إذا لم يَكن حرا في أن يُحب أو لا يُحب. كما أن حريته هذه جعلته جديرا أن يكون شبها لله وخليفة له.

بعد ذلك استمر الله بدافع محبته العظيمة للإنسان في العناية به وتلبية كافة حاجياته. ربما لم يكن آدم يدرك كل الأشياء التي كانت تنقصه، لكن الله الذي يحيط علمه بكل شيء، أدرك أن آدم لا يجب أن يبقى وحيداً. فدعا كل الحيوانات التي خلق للمثول أمام آدم حتى يمنحها أسماء ويمكنه بعد ذلك أن يستعين بها متى أراد. وهذا، لعمري، مثال آخر على أن الله خلق الإنسان شبها له. إذ ما الذي منع الحيوانات أن تُسَمِّي نفسها بنفسها؟ المانع طبعا هو كون الله لم يمنحها هبة اللغة ومنح هذه الهبة للإنسان. اللسانيون يقولون أن اللغة اقتصرت في البداية على الأسماء التي كان يسمى بها الإنسان الأشياء. والكتاب المقدس بدوره يقول أن هذه أول مهمة أسندها الله للإنسان. هكذا سمى آدم الحيوانات جميعاً .وكما أنّ النطق من صفاته تعالى، كذلك منح الإنسان القدرة على استعمال اللغة ونطق الكلام، لأنه بالكلمة يتم التواصل بين الله والإنسان.

وأدرك الله أيضا بحكمته أن الحيوانات وحدها لا تكفي، لأنه جلت قدرته يعلم علم اليقين معنى وأهمية المودة الحميمة والحب العميق اللذين غرسهما في الإنسان. لذلك فهم أن الإنسان لن يكتفي بوجود الحيوانات حوله لأنها لا تستطيع البوح بما يخالجها كما لا يستطيع هو كذلك البوح لها بما يريد. ولأن الله رأى أن كل ما خلقه حسن، رأى أيضا أن وجود الإنسان دون نظير له ليس حسنا. فخلق المرأة شبها له لأنها صنعت من لحمه ودمه. وكانت قادرة على أن تصبح رفيقة جديرة برفقته، ليس في الجسد وحسب، بل في الوجدان والعاطفة، أي في الروح كذلك.

ولكي يضمن الله إدراك الإنسان لمغزى ما فعل، لم يبدأ خلق حواء من عناصر الأرض كما فعل مع آدم، بل بدأ خلقها من آدم نفسه، من بنيته الجينية. فجاءت مختلفة عنه وشبهه في آن واحد. الله الذي هو كمال الوحدة والاختلاف، أسس خلقه جميعا على الوحدة والتنوع. لم يأخذ حواء من رأس آدم حتى لا تتسلط عليه، ولم يأخذها من قدمه حتى لا يتسلط عليها، بل أخذها من أحد أضلاع جنبه لكي تصبح شريكته التي تسير جنبا إلى جنب معه.

وجد آدم في حواء رفيقته المثلى سواء روحيا أو جسديا. فكانت الشخص الذي استطاع أخيراً أن يُكِن إليه بما يخالجه ويتوحد معه، لأن الله حين خلقهما، قدر لعلاقتهما الكمال وطبعها بالتواصل والحب.

# الفردوس المفقود

كان كل شيء يبدو في ذلك الفردوس كاملا. أمر واحد فقط كان يوشك أن يعصف بكل ذلك الكمال. فقد انسل إلى داخل الفردوس روح شرير ماكر الدهاء، هدفه السعي في الفساد وفي الهدم، لأنه جاء كي يسلبَ المحبة والفرح والسلام والقداسة والحياة من يد الإنسان. جاء كي يزرع بذور الموت، والبغض، والحزن، والنزاع، والشرور. هذا الروح الشرير، هذا المعتدي الآثم هو إبليس. الملاك المطرود شر طردة، الخارج عن ملكوت الله، المعترض كل سبل الخير. لقد كره إبليس الإنسان كراهية شديدة وأراد أن يهد صرح الخليقة. الشرير جاء ليبذر في قلب الإنسان بذرة الشك. الكاذب أبو الأكاذيب، المفتري على الخالق، جاء يشكك في كلمات الله ويشيع أن الله تعالى لم يَعْن ما كان يقول وأنه جَانب الحقيقة بخصوص ما سوف يحدث.

طفق إبليس يخدع حواء بأشباه الحقائق «هل حقًا قال الله ذلك؟»، «هل أمركما ألا تأكلا من أية شجرة في الجنة؟» لكن حواء أجابته الجواب المفحم قائلة: «لا! بل أمرنا أن نأكل من كل شجرة الجنة ماعدا شجرة واحدة في وسط الجنة» عندئذ بادرها الشيطان قائلا «أؤكد لك أنكما لن تموتا إذا أكلتما من تلك الشجرة» لكنها أجابته بأنه مخطئ، وأنهما إذا أكلا من الشجرة يموتان، لكن ليس في الجسد وليس على الفور، بل سيكون موتا في الروح وفي الوجدان ليتحول شيئا فشيئا إلى موت جسدي.

ثم استعمل إبليس بعد ذلك شيئا كان في الأصل الدافع إلى تمرده على الخالق جل شأنه، فأغرى حواء بعبادة الأوثان والتجديف على الله. أغراها أن تقارن نفسها بالخالق. وكما فعل هو من قبل حين تحدى الله الذي ليس فوقه من أحد، أغرى حواء أن تتشبه بالخالق. لكن ما حاجتها إلى ذلك إذا كان الله قد خلق الإنسان شبها له. كان إبليس يرمي في الحقيقة إلى إغراء حواء كي تتصور نفسها مكان الخالق الذي أسبغ نعمة محبته عليها. فقال لها أن معرفة الخير والشرّ سترفعها إلى مرتبة الله تعالى. لكن ليس بالضبط تماما. الله يعلم كل شيء لكنه لا يصنع الشر. طبيعته الخير المطلق لذلك لا يمكن أن يصنع شَرًّا.

لم تفكر حواء مَلِيًّا في الأمر. نظرت إلى الفاكهة الجميلة الناضجة أمامها فافتتنت بها، لأن شيئاً ما في الفاكهة دغدغ رغبتها في المتعة والتملك والقوة. نسيت للحظة الواحد الأحد الذي خلقها وجعلها في وسط ذلك الفردوس العظيم البالغ الكمال. وتحت تأثير الغواية اللعينة نسيته فاستطاعت بسهولة عصيانه. وضعت رغباتها مقاما أرفع من محبتها للخالق، فانخدعت وحدث ما حدث.

لكن إذا كانت حواء قد فعلت ما فعلت عن جهل، فإن آدم عصى أمر الله عن قصد، لأنه سمع الله يوصيه حرفيا ألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر. سمع ذلك بأذنيه، لكنه فضل العطية التي ناولته إياها حواء. مدت له الثمرة فقبلها وأكل، ضَاربا عرض الحائط بوصية الإله. وبذلك جعل نفسه أجل مقاما من الله لأنه عصاه وتصرف تصرفا يعارض مشيئته تعالى. لقد أصبح عابدا لوثن النفس ومجدفاً على الله. ومعهما ماتت البشرية جمعاء. وكانت تلك هي الكارثة الأصلية التي أصابت الجنس البشري، وتناسلت عنها باقي الكوارث.

فتح آدم وحواء عينيهما وأدركا أنهما عاريان. وكان ذلك إيذانا بأن الخزي والعار قد دخلا الحياة، ومعهما محاولات الإنسان اللا مجدية كي يخفي خزيه وعاره عن الأعين، حيث أن الإنسان منذ ذلك الحين وهو يحاول جاهداً أن يخفي خطاياه ويحجب أفكاره وأفعاله الشريرة عن الأعين حتى لا يراها أحد، وكأنه بإخفائها يفرغها من طاقة الأذى الكامن فيها. لكن هيهات! فالله تعالى الذي يرى ويعلم كل شيء جاء إلى آدم وحواء كي يكلمهما فحاولا الاختباء من وجهه. لقد عرفا الخير والشر لكنهما لم يصيرا مثل الله. كان الاثنان مذنبين، خجلانين، خائفين من مواجهة الإله.

لم يكن مجديا إخفاء أي شيء عن الله. فقد نادى الرب آدم قائلا «أين أنت يا آدم؟» كان الله بالطبع يعلم مكان آدم لأنه العالم بكل شيء. وكان يعلم خطيئته إذ لا تخفى عليه خافية. فقط أراد لآدم وحواء أن يعترفا بخطيئتهما. فماذا أجاب آدم؟ أجاب «خشيت منك لأنني عارٍ فاختبأت من وجهك؟» نعم كان عاريا جسدا وروحاً، مذنبا ومدركا لفداحة ذنبه، محقا في خوفه من الله، لأن قداسة الله أمر تلزم خشيته، حيث أنه تعالى لا يتغاضى أبداً عن خطيئة مهما كانت. فآدم لم يأكل فقط بعض الفاكهة اللذيذة من شجرة معينة في الفردوس، بل عصى أمر الله تعالى جاعلا من نفسه نِدًّا لله. فكل الخطايا سواء أمام الله. ليس من خطيئة كبيرة وأخرى صغيرة. كلها تعبير صريح عن عصيان أمر الله المقدس. وآدم كان يعرف كل ذلك وكان خائفا.

لم يكتف الله بسؤال واحد، بل واصل أسئلته لآدم لكي يجعله يدرك أنه عالم بما قد حدث، عالم بأن آدم عصاه. فسأله سؤالين آخرين «من أخبرك أنك عَارٍ؟»، «هل أكلت من الشجرة التي أمرتك ألا تأكل منها؟» كان الله يعرفُ جواب آدم مُسبَقًا لكنه كما قلنا أراده أن يعترف بنفسه. أراده أن يعترف بذنبه. لكن كما هو حال الجنس البشري عَادَةً، نَحَا آدم باللوم على شخص آخر. أنكر مسؤوليته فيما حدث قائلا،» المرأة التي جعلتها في الفردوس معي أعطتني من الشجرة فأكلت.«هكذا نحا أولا باللوم على الله بصورة غير مباشرة لأنه جعل معه حواء، ثم نحا ثانية باللوم على حواء لأنها أعطته من الشجرة. فهل كان آدم يظن حقا أن الله سوف يقتنع بهذا الكلام؟

إننا نرى أنه لم يقبل أن يعترف بخطئه الشنيع، فبالنسبة إليه إما أن الله قد أخطأ بوضع حواء معه في الفردوس، أو أن شخصاً آخر هو الذي أخطأ، وتلك هي طبيعة الإنسان الذي لم يفتأ يحمل الآخرين خطاياه.

لعبت حواء بدورها لعبة آدم، فنحت باللائمة على إبليس وحملته خطيئتها. كلاهما رفض أن يتحمل مسؤولية ما ارتكبه. كلاهما أشار بأصابع الاتهام إلى شخص آخر غيره.

لم يهتم الإله بأن يسأل إبليس. كان أمرا غير ذي جدوى لأن العصيان من سماته. وعوض ذلك أنزل عليه اللعنة ووعد بأن واحدا من نسل حواء سوف يدق رأسه ويهزمه شر هزيمة هادما مملكته وجبروته.

لعن الله حواء أيضا وحكم عليها بالتعب عند الحمل، والوجع عند الولادة، وبسيادة زوجها عليها وانقيادها له. أما آدم فكان العمل الشاق نصيبه من اللعنة. كما شملت اللعنة الأرض قاطبة بسببه، فلم تعد تؤتي خيراتها إلا بشق الأنفس. وهكذا قدر على الخليقة كلها أن ترزح تحت نير الخطيئة التي ارتكبها آدم وحواء بعصيانهما أمر الخالق.

بعد ذلك أنذر الله آدم بأنه سوف يصير ترابا، إذ سينحل جسده إلى العناصر الأصلية التي صنعه الله منها. وبذلك سيكون الموت الجسدي مرحلة حتمية لاحقة بالموت الروحي الذي أصاب الإنسان.

إن آدم وحواء لم يضعا ثقتهما كاملةً في محبة الله لأنهما أنصتا إلى أكاذيب إبليس وصدقاه وجعلا رغائبهما فوق طاعة الخالق. فكانت النتيجة ألما فوق الوصف وعناءاً أبديا. لكن الله لم يكف عن محبته للإنسان. فقد أخذ الكساء الرهيف الذي خصفه آدم وحواء عليهما من ورق الجنة وأعطاهما بدلا منه لباسا قويا من جلد الحيوان حتى يدوم طويلا. لكن هذا اللباس الجديد اقتضى موت حيوان لأجل جلده، حيث نرى أيضاً تسلسل الخطيئة التي كانت سببا في موت حمل صغير أُخذ ربما أخذًا من أمه.

أعقبت ذلك مأساة أخرى. فقد رأى الله أن هذين الشخصين الخاطئين لا يمكن أن يسمح لهما بالأكل من شجرة الحياة، والعيش بسبب ذلك إلى الأبد. لذلك وجب طردُهما من الجنة، فأخرجهما منها وجعل عليها حارسا حتى لا يستطيعا العودة إليها من جديد. وهكذا خرجا من رحمة الله واحتجبت عنهما نعمته. انبث حبل التواصل والمحبة، وكان ذلك الانفصال مرعبا، فحزن لأجله آدم وحواء حزنا شديداً. فيا لها من مأساة! لأن خطيئة واحدة فقط، مجرد عصيان واحد أغضب الخالق جل شأنه وأعاق التواصل الحميم بينه وبين الإنسان.

لكن وسط هذا الظلام الموحش الرهيب سطع بصيص ضوء، انفتحت فسحة أمل بأن يولد من نسل حواء من يهزم الشيطان ذات يوم. ومرة أخرى نرى أن محبة الله للإنسان قادرة على اختراق الظلمة وزرع الأمل من جديد داخل الخليقة.

# مجيء الموت

خارج الفردوس وبعيدا عن مهد السلام والطمأنينة والعناية الربانية التي كان آدم وحواء ينعمان بها، بدأ هذان الأخيران حياتهما الدنيوية الجديدة. أصبحت حواء تعرف غاية المعرفة ضعف الإنسان وعجزه عن تحقيق أي شيء دون معونة الخالق. فقد تكون توصلت إلى ذلك نتيجة تفكرها العميق فيما حدث لآدم ولها بسبب عصيانهما. المهم أنها استنتجت أخيراً أن لا حول ولا قوة لمخلوق مهما علا شأنه دون معونة الخالق. لذلك عندما وضعت ابنها الأول قابيل فهمت أن الأمر إنما تم بمشيئة الله ومعونته. فتوجهت بالشكر والحمد له تعالى.

ثم وضعت ابنها الثاني هابيل. وكان الاثنان قابيل وهابيل مختلفين. فقابيل كان فلاحا يزرع الأرض لكي يأكلوا جميعاً مما تجود به. أما هابيل فكان راعي غنم وماعز. وكان كلاهما يدرك أن عليه التقرب بتقدمة إلى الله حمدا وتمجيدا له. فقدّم قابيل قربانه من ثمار الأرض. لكن الثمار التي قدم لم تكن للأسف أجود ما حصد، لأنه كان يشعر بأنه يؤدي واجبا فقط. لذلك لم يكن قلبه مفعما بحب الخالق وهو يقدم قربانه. كان يفعل ذلك خوفا ورهبا فقط مما قد يحدث لو لم يفعل.

أما هابيل فقد قدم أجود أبكار غنمه وأسمنها .كان يؤمن في قرارة نفسه بأن لاشيء أفضل من وجه الخالق، لذلك كان قربانه فرصة لكي يظهر مدى محبته لله وتعلقه به. ولأنه آمن أن الله يستحق الأجود والأحسن والأفضل من كل شيء، فقد اختار قربانه من بين أجود الرؤوس التي انتقاها بدورها من بين أجود أنواع قطعانه. فأحب الرب قربان هابيل لأجل ذلك.

أما تقدمة قابيل فلم تَرُق للرب. لذلك أبى حتى النظر إليها واعتبرها إهانة لمجده تعالى وجلاله. هو الله القُدّوس العظيم، من ذا الذي يجرؤ أن يتقرب إليه بأقل مما تستحق قداسته وعظمة مجده؟

وَعَلِم قابيل أن قربانه لم يُتَقَبَّل، فاستشاط غضبا لذلك واغتاظ غيظا شديداً. اغتاظ لأن الله تقبل قربان أخيه ورفض قربانه هو. لكنه كتم غيظه وأسرَّه في قلبه، فطفقت بذور الحقد والضغينة تنمو شيئا فشيئا إلى أن رَبَتْ وازدهرت وأطلعت ثمر الشر الأشد مرارة.

كان الله تعالى يعلم شعور قابيل، لأنه كان يطالع قلبه مثل صفحة في كتاب ويرى مدى قلقهِ. كما كان ينظر إلى وجهه ويرى مدى انزعاجه. فكلمه الرب سائلا إياه عن سبب غيظه. كان يعلم السبب طبعاً، لكنه أراد فقط أن يفعل معه ما فعل من قبل مع آدم وحواء. أراده أن يعترف بغيظه ويضع يده على مكامن حقده حتى يكف عنه. أراد أن ينبهه إلى مغبة الخطيئة التي كان على وشك ارتكابها إذا هو لم يرجع عن غيه.

لكن الوضع استفحل وأصبح خطيرا. ووجد قابيل نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما: فإما أن يتحكم في نفسه الأمَّارة بالسوء ويطرد الغضب من قلبه، وإمَّا أن يتركه يسيطر عليه ويحكم قبضته على تفكيره. كان الخيار الأول السبيل للتحرر من خطيئة الغضب وكل ما سوف يترتب عن تلك الخطيئة. وكان بإمكان قابيل في تلك المرحلة أن يصبح حرا، لكنه للأسف أطلق العنان لوحش الغضب الكاسر وتركه ينهش مثل فريسة سلامه الشخصي مع الله ومع نفسه. كما تركه ينهش مشاعر محبته لأخيه هابيل .ترك الخطيئة تنمو مثل مرض خبيث وتتلف خلايا أفكاره الطيبة. فقد شعر بالإهانة لأن الله تعالى رفض قربانه وتقبل قربان أخيه، فاحتل بذلك مقاما أدنى من مقام أخيه. لذلك أراد إجتثاث هذا الشعور من قلبه بالتفكير في احتلال المقام الأول، وَتَرَكَ هذه الفكرة تختمر في ذهنه.

رأينا أن قابيل لم يكن راغبا في الرجوع عن غيه. فقد ترك الخطيئة تنمو في قلبه وتتكاثر مثلما تتكاثر أعشاب الفطر في حقله، حاكمة السيطرة على أحاسيسه ومشاعره، إلى أن كان يوم قال لأخيه هابيل «هيا بنا إلى الحقل! «وما إن ابتعدا عن آدم وحواء، ما إن ظن قابيل أن لا أحد يراه حتى انقض على أخيه وقتله وحفر حفرة دفنه فيها ثم قفل عائدًا. وفكر أن لا سبيل لأحد أن يعلم ما حدث. سيقول الجميع أن هابيل رحل إلى حال سبيله أو ربما هلك في أحد البراري. لكن لن يعلم أحد يقينا ما حدث. هكذا عزم قابيل على خداع الجميع.

لكن هل يمكن أن ينخدع الخالق؟ إنه العليم الذي لا تخفى عنه خافية. حتى الظلام لا يمكن أن يحجب عنه شيئا بتاتا لأنه يصبح شفافا أمام نور وجهه. هو يرى كل شيء ويعلم ما ظهر وما بطن. وفي ذلك يقول الشاعر العربي زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتمنّ اللّهَ ما في نفوسكم
ليخفى ومهما يُكتمِ اللّه يُعلمِ

ويقول الحسن بن هانئ أيضاً:

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً؛ فلا تقل
خلوتُ؛ ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللّه يغفل ساعةً
وأن ما يخفى عليك يغيبُ

بالطبع علم الله مع حدث مع قابيل، فبادره رغم ذلك بسؤال يعرف جوابه مُسَبّقًا: «أين هابيل أخوك؟» امتنع قابيل عن الإجابة أول الأمر، ثم حاول الكذب ليداري خطيئته. فقال «لا أعرف «ومثلما حاول آدم وحواء من قبل أن يخفيا خطيئتهما، حاول قابيل بدوره أن يكذب. لكن الإنسان لا يستطيع مهما فعل أن يخفي شيئا عن الخالق، إذ لا سبيل إلى ذلك ما دام يعلم كل ما نفعل وما نقول وما نفكر به. كان تعالى عالما بما حدث مع قابيل الذي حاول أن ينكر مسؤوليته عما فعل قائلا: «أحارس أنا لأخي؟» وكم بدا ساذجا ومغرورا ومخطئا في عين الله الذي كان على علم بجريمته النكراء.

فخاطب قابيلَ قائلاً «ماذا فعلت؟ أنصت. صوت دم أخيك صارخ إلي من قلب الأرض «لقد كان الله شديد الاهتمام بهابيل الذي أحبه مثلما أحب قابيل أخاه. فالله أحب الإنسانية جمعاء لذلك لم يبتغ الموت يوما لأحد. والإنسان لم يكن في يوم ما لعبة بين يديه. فهو بالطبع جعل حرية الإنسان محدودة، لكنه جعله أيضا مسئولاً على أفعاله. وَلأنه رب عادل يعاقب على الخطيئة ولا يتغاضى عنها، وحكمه مؤسس على الكمال والقداسة، فقد قال لقابيل «ملعون أنت ومطرود من الأرض «وللتو لم تعد الأرض تنبت له شيئا مهما كد وتعب. كما أخبره أنه سيعيش ما تبقى من حياته تائها وهاربا في الأرض.

لقد رأينا كيف أن آدم خرج من الفردوس. وهاهو قابيل الآن يطرد من بين أهله ويختفي من وجه الرب. كما أنه فقد عمله، لأنه كان فلاحا يعمل في الأرض ولم يعد قادرا على ذلك بعد لعنته. فارتعب أشد الرعب وجثا أمام الله يشتكي له هول عذابه الذي لا يحتمل. فأعطاه الله وعدا بأن يحميه، ووضع لأجل ذلك علامة على جبينه حتى لا يقتله أحد.

اختفى قابيل من وجه الله لأن خطيئته أبعدته عن الخالق. فبدا واضحا أن الخطيئة لا تكف عن التناسل متى ارتُكِبت، لأن خروج آدم وحواء من الجنة أعقبه الآن اختفاء إبنهما من أمام وجه الله.

وحاول قابيل إحراز الخلود بواسطة أمرين: الأول ضمان وجود نسل منه عبر ولده حنوك، والثاني بناؤه مدينة. لكن ما أوهاه سبيلا لإحراز الخلود! أو لم يَئْس أنه أحرز العار بكونه أول قاتل لإنسان في تاريخ البشرية، وما كان ذلك الإنسان سوى أخيه من أمه وأبيه. مع ذلك أراد إحراز الخلود بواسطة إنجازاته وأعمال يديه. فسمي المدينة التي شَيَّد على اسم ابنه حنوك. لكن هيهات! فإنجازات الإنسان مهما صمدت أمام الزمن هي غير خالدة. لذلك كانت محاولة قابيل محكومة بالفشل الذريع.

فانظر كيف نمت الخطيئة في قلب قابيل وترعرعت، إلى أن تغلبت عليه وجلبت له الموت والدمار، وكيف أن مأساة الفردوس تعمقت بافتقاد وجه الله الذي لم يفتأ الإنسان منذ ذلك الزمن يحاول استعادته.

وقد راقتني كثيراً في هذا الصدد الأبيات التي ينسبها الثعلبيُّ في كتابه قصص الأنبياء إلى كلّ من آدم وحواء وإبليس، والتي يزعم أنها أول قصيدة قيلت بالعربية. وهي تأتي على شكل محاورة يبدؤها آدم برثائه المشهور لابنه هابيل حيث يقول:

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مُغْبَرٌّ قبيحُ
تغير كل ذي طعم ولون
وقلَّ بشاشةً الوجهُ الصبيحُ
وقابيل أذاق الموتَ هابيلاً
فواحزنا! لقد فُقدَ المليحُ
وما لي لا أجود بسكب دمعٍ
وهابيلٌ تضمنّهُ الضريحُ

فتُجيبه حواء قائلة:

دع الشكوى فقد هلكا جميعاً
بموتٍ ليس بالثمنِ الربيحِ
وما يغني البكاءِ عن البواكي
إذا ما المرء غُيِّبَ في الضريحِ
فأبكِ النفسَ وانزل عن هواها

ويذكر الثعلبي أن إبليس أيضاً أجاب آدم قائلاً:

تنحَّ عن البلاد وساكنيها
ففي الجناتِ ضاق بك الفسيحُ
وكنت وزوجك في رخاءٍ
وقلبك من أذى الدنيا مريحُ
فما زالت مكايدتي ومكري
إلى أن فاتك الثمنُ الربيحُ
فلو لا رحمةُ الجبار أضحى
بكفكَ من جنان$ الخلدِ ريحُ

# الخطيئة والرحمة

شيئا فشيئا بدأت ساكنة الأرض في التكاثر. ولد لآدم وحواء أبناء آخرون، ووُلد لهؤلاء الأبناء أبناء بدورهم ثم تكرر الأمر أجيالا وأجيالا. لكن شيئا ما فظيعا كان يحدث في نفس الآن. كان الإنسان يبتعد أكثر فأكثر عن الخالق، حيث لم يعد البشر يخشونه بشكل عملي. كانوا يتحدثون عنه كثيرا، ويسهبون في تعداد أسمائه وأوصافه، لكنه كان غائبا عن حياتهم اليومية الملموسة. ففي قرارة أنفسهم وفي رغباتهم الدفينة وأحلامهم العميقة لم يكونوا أبدا يضعونه المقام الأول. كان شخصا نظريا نائيا لا أثر له في حياتهم العملية.

فقال الرب «لن تتحمل روحي خطيئة الإنسان إلى الأبد. سأحدد له مدة لا يتعداها على الأرض. وستكون هذه المدة 120 سنة.«وهكذا حدد للإنسان أجلاً لا يتعداه، بحيث يعيش حتى حين ثم يموت ويواجه الحساب بعد ذلك.

لكن الخطيئة استفحلت واستشرت، واستولت الأفكار الشريرة على عقول الناس. ولربما بدت أفعالهم حسنة في الظاهر بسبب نفاقهم ورياءهم وكذبهم على أهلهم وذويهم. لكنّ أفكارهم العميقة كانت شريرة أبدا. كانوا يحاولون جاهدين إخفاء الخطيئة داخل أنفسهم. إلاّ أنهم مثل آدم وحواء، وقابيل، فشلوا في إخفاء خطاياهم عنه تعالى لأنه كان على علم بما تخفيه سرائرهم وقلوبهم.

حزن الرب بسبب خطايا البشر لأن قداسته لا متناهية، ووجهه لا يتحمل شائبة الخطيئة. ولأنه تعالى كان يحبّ الإنسان أيضاً. لذلك كان حزنه لأجل خطايا البشر يماثل حزنه لموت هابيل. وكان بطبيعته ربا عادلا لأنه لو لم يكن كذلك لتناقض، جل شأنه، مع جوهره. كل ذلك جعل أسفه على البشر مفعما غضبا بسبب استفحال خطاياهم، فصار لزاما أن يضع حدا للشر ويحاكم الأشرار.

مرة أخرى كان على الخلائق جميعا أن تتحمل عاقبة خطيئة الإنسان. فقد حكم الله على الإنسان والحيوان وطيور السماء بالاندثار من على وجه الأرض، لأنه بسبب خطيئة البشر حزن على كل ما عمل في الأرض.

لكن من قلب الظلمة أشرق شعاع أمل. وهذا الشعاع تمحور حول رجل كان يدعى نوح، النبي الكريم الذي استطاع أن يحوز رضا الله في غمرة حزنه على البشر. لقد وجده الله رجلا صالحا. مع ذلك لم تكن استقامته النموذجية كافية لإعفائه من عقاب الله. إلا أنه، جل شأنه، نظراً للتوق الروحي الذي لمسه في قلبه وللرغبة الصادقة لديه في أن تتحقق مشيئة الرب، بسط لطفه ليشمله.

اعتبر الله نوحا رجلا باراً، طاهر الروح بين البشر، لأنه لم يكن يسير فقط على خطى الله ولم يكن فقط يتكلم كلماته، ويلهج دائما بذكره، بل كان يحيا في تواصل دائم وحميم معه. وكانت طاعة الله هي

غاية وجود نوح على الأرض. ولكنه تعالى رغمَ ذلك كان يعلم أن نوح ليس بالكمال الذي يجعله ينال مباركته الكاملة. إلاّ أنه أحبه وأحب توقه الروحي الصادق، فأسبغ عليه نعمته.

ونعلم أن العرب عرفوا نوحاً منذ قرون سحيقة تمتدّ حتى فترة ما يُسمى بالعصر الجاهلي، حيث يقول الشاعر النابغة الذبياني:

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي
على وجلٍ تُظن بي الظنون
فألفيتُ الأمانةَ لم تخنْها
كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

لقد أراد الله أن ينزل عقابه على العالم قاطبة، سوى أنه لم يكن راغبا في أن يؤذي نبيه نوح. لذلك أخبره بنيته في تدمير الأرض، وأوصاه وصية غريبة! إذ رغم أن المنطقة التي كان يعيش فيها نوح كانت بعيدة عن البحر، ورغم أنها لم تعرف فيضانات من قبل، فقد أمره أن يصنع فُلكاً كبيراً يسعه هو وزوجته وأبناؤه وزوجات أبنائه. كما أخبره بأن يأخذ معه داخل الفلك زوجين من كل نوع من أنواع الحيوان والطيور. كانت سفينة ضخمة بمقاييس ذلك العصر.

وأعطى الله نوح مقاييس الفُلك حوالي 150 مترا طولا، و25 مترا عرضا، و9 أمتار ارتفاعاً، كما أعطى تعاليمه بخصوص نوع الخشب الذي سوف يصنع منه الفُلك. ثم أمره أن يقسمها إلى أقسام ومساكن، وأن يدهنها بالقار من الداخل والخارج حتى لا يتسرب إليها الماء، لأنه ربما كانت هناك حقول نفط ترشح قَاراً حوالي المنطقة التي كان يقطنها نوح. كما أمره أن يجعل للفلك كوةً يدخل منها الهواء النقي.

لن نجزم بأن نوحا وأبناءه سام وحام ويافث صنعوا الفلك بأنفسهم. فقد يكون ساعدهم في بنائها أشخاص كثر، لكن هؤلاء جميعاً كانوا على الأرجح يشُكُّون في سلامة عقل نوح. فهم لم كونوا يشاركون نوحا إيمانه بالله تعالى، ولم يكونوا ليصدقوا أمر الطوفان الذي أخبره الله به، إذ أخبر الله نوحا بالفعل أنه سوف يأتي بطوفان يغرق كل الأرض. وهكذا لم يكن الذين لا يؤمنون بالله يتصورون احتمال حدوث طوفان في تلك المنطقة الشحيحة الأمطار. كما لم يصدق الذين لا يفهمون قداسة الله المطلقة بأنه سوف يهلك كل ما في الأرض.

لقد أبى عز وجل إلا أن ينزل عقابه الشديد بسبب الشر الذي انتشر في الأرض، رغم المحبة التي كان سبحانه يكنها لجميع مخلوقاته. لأن العدل والرحمة طرفان في معادلة أبدية واحدة.

بشر الله نوحا بنجاته من الطوفان بفضل الموثق الذي عقده معه، والذي التزم الله بموجبه أن يحفظ نوح من الهلاك لقاء إيمانه وبره. وقد شمل هذا الموثق أهل نوح أيضا والكثير من البهائم والطيور. أما الكافرون فقد كتب عليهم الهلاك. فزاوج الله بذلك بين الأمر بالعقاب والوعد بالنجاة، وقضى سبحانه بأن يبدأ كلَّ شيء من جديد ويبني صحبة نوح عالما جديدا كما فعل مع آدم من قبل.

جمع نوح وأبناؤه الحيوانات والطيور والمئونة التي سوف تكفيهم جميعا، ثم حملوا كل شيء داخل السفينة. فقد كان كل ذلك بالنسبة إليهم عملا شاقًا، لكنهم كانوا يطبقون تعاليم الله الذي لا يستطيعون أن يعصوا له أمرا. وكانوا يستعدون استعدادا لليوم الذي وعدهم سبحانه.

ثم كان أن أزف الوعد، فأغلق الله عليهم منافذ الفلك وأوصد بابها حتى لا يتسرب شيء بداخلها. ولربما كان يودِّ نوح وأهله عندما سمعوا الصراخ المرعب المنبعث من الخارج أن يفتحوا الباب وينتشلوا الهاربين من هول الفاجعة. لكن عدل الله قضى غير ذلك.

تهاطلت الأمطار بغزارة لا تتصور مدة خمسة أشهر. فانفجرت الأرض ينابيع من كل ناحية وتدفقت السيول العارمة جارفة كل شيء أمامها. وكانت النتيجة أن عم الطوفان الأرض، فهلكت البهائم والطير، ولم يتبق إلا من كان موجودا داخل السفينة. وبذلك حكمت الخطيئةُ ليس على البشرية وحدها فقط، بل على الخلق قاطبة بالهلاك. ولم تنج الخليقة من نهايتها المحققة إلا بفضل بر النبي نوح. فقد أنقذت رحمة الله الواسعة نوحا وأهله، ولم يكونوا جميعا ليحرزوا خلاصهم لولا تكريم الخالق لقوة الإيمان لديهم، وبذلك وسعتهم رحمته.

بقي نوح وأهله شهورا عديدة داخل الفلك. ثم بدأت مياهُ الطوفان تتراجع واليابسة تبزغ في الأفق، فأطلق نوح حمامة وتركها تحلق عدة أسابيع فوق المياه ، إلى أن كان يوم لم تعد الحمامة. ففهم أن بإمكانهم أخيرا الخروج لأنهم أصبحوا في مأمن. فتنفسوا الصعداء وانطلقوا خارجين إلى أرض الله الواسعة؛ نوح وأهله وجميع البهائم والطيور. كانوا على قمة جبل أرارات، ومن تحتهم بدت على امتداد الرؤية سهول الأناضول والوديان الخصبة الخضراء التي أحيتها مياه الطوفان المتراجعة. لقد وعدهم الله إذن حياة جديدة ومنحهم فرصة أخرى لأن محبته تعالى كانت منذ آدم وحواء، وصنيعه معهما حتى بعد أن أخطآ، بمثابة فسحة أمل بالنسبة للبشر وإيذانا لهم كل مرة ببداية جديدة.

# العودة إلى الفوضى

رأينا أن قدرة الله المبدعة وحكمته العجيبة الأزلية حولتا الفوضى والظلمة إلى كون متقن الصنعة، محكم النظام، نابض بالنور والحياة. ثم كان زمن أرسل فيه الله الطوفان على الأرض حتى يطهرها من خطايا وشرور الإنسان. لكنه تعالى أعطى هذا الأخير فرصة أخرى كي يبدأ حياة جديدة. بهذه الصفة غادر نوح وأهله السفينة وانتشروا في الأرض الطاهرة الناضرة المفعمة بنسائم الربيع.

وبمرور الأيام بدأ الناس يتجهون شرقا، كما بدأت أساليب حياتهم تتغير إلى أن بلغوا بلاد ما بين النهرين حيث توقف الترحال وطفقوا يشيدون في ذلك المكان البهي مدينتهم. فازدهر العمران كثيرا وترامت المزارع في كل اتجاه. وتعلم الناس كذلك صناعة الآجر الذي كان يُسَوَّى من طين الأودية ثم يوضع في الأفران كي يجف. كما استعملوا القار المتوفر بكثرة في لصق الآجر ببعضه البعض مستعيضين بذلك عن الحجر الذي كان نادرا في تلك المنطقة.

وكان التواصل بين الناس سهلا لأنهم كانوا يتكلمون نفس اللغة التي هي لغة نوح وأهله. فكانوا يشتركون في العمل ويفهمون أفكار بعضهم البعض بفضل خلفيتهم الثقافية المشتركة. لكنهم للأسف

سقطوا في نفس الفخ الذي سقط فيه قوم ما قبل الطوفان. ففي غمرة الانتشاء بالمهارات التي اكتشفوها لديهم، تناسوا الله تعالى، وحوَّلوا اهتمامهم إلى الإنسان مركزين على قدراته بدلا من التركيز على الخالق جل جلاله.

هكذا تطور لديهم شعور حاد بالأنا واهتمام كبير بالمحافظة على الذات. فقالوا «لنصنع لأنفسنا مدينة ونشيد وسطها برجا يمتد إلى السماء حتى يكون لنا صيتٌ ولا نتفرق في الأرض».

لقد أخذوا على عاتقهم مشروع الخلود الذي سبقهم إليه قابيل عندما شيد مدينته التي أطلق عليها اسم ابنه «حنوك»، إذ عوض التفكر في الجنة والبحث عن سُبُل الفوز بها، فكروا في تشييد مدينة. فحشدوا الأدوات والوسائل والآجر اللازم لذلك وشرعوا في بناء البرج العظيم الذي بات يعلو أكثر فأكثر حتَّى أشرف في ارتفاعه المهيب على السهول المنبسطة، وأصبح يشاهد من أماكن بعيدة جدا لأنهم كانوا عاقدين العزم على بلوغ أسباب السماء.

لكن ما أسخف هذا التفكير في بلوغ أسباب السماء بواسطة الجهد البشري المحدود، إذ الأمر يبدو غاية في السذاجة، وكأن الله عز وجل يعيش مثل البشر داخل حَيِّز مَادِّي محسوس يسهل بلوغه. فالله تعالى روح لا يقيم في مكان معين بالشكل الذي نتصوره نظرا لمحدودية قدراتنا عَلَى التفكير الروحاني المُجَرَّد.
وفي ذلك يقول الشاعر

وارغب إلى الله لا إلى جسدٍ
منتقلٍ من صباً إلى كبر
إن الذي لا يخيب سائله
جوهره غير جوهر البشر

كما أن الجَنَّة ليست مكانا ماديا ملموساً بالشكل الذي نتصور به حديقة أو بستانا في نهاية شارع ما. إنها أجَلُّ من ذلك وأعظم، إذ الملذات والمتع والمسرات التي وُعدناها هناك أرفع ملايين المرَّات من الملذَّات والمُتع المادية المحسوسة التي يستشعرها هاهنا جسدنا المادي المحدود. لهذا كانت محاولة أولئك بلوغ أسباب السماء تحدِّياً سافِراً وساذجا لقدرة الله تعالى وتجديفا حقيرا عليه.

وكان الله تعالى يراقب المشهد كله، ويرى المدينة والبرج العظيم ويعلم أن الأمر كله محاولة جديدة ساذجة من الإنسان كي يصبح نِدًّا له، إذ كما أن إبليس أغوَى آدم وحَوَّاء من قبل في الفردوس، هاهو يواصل غوايته الحقيرة للبشر فوق سهول منطقة ما بين النهرين، حيث لا يفتأ اللعين يهمس لهم: «هَيَّا! بإمكانكم أن تصبحوا مثل الله ". فهل أخذ الإنسان العبرة الكافية من مأساة الفردوس المفقود؟ لا يبدو الأمر كذلك بتاتا. كانت آذان البشر لا تزال تصغي لإبليس عوض أن تخشع لله وتصغي إليه.

لم يبد الأمر غريباً بالنسبة لله تعالى لأنه يعلم مجرى ومستَقَر كل شيء. لذلك أنزل عقابه بطريقة مختلفة هذه المرة. كان تعالى يريد أن يهلك البشر لكن بشكل مغاير تماما لما اعتاد أن يفعل. فعوض أن يفنيهم عن أخرهم قرر تشتيت شملهم وتفريقهم إلى مجموعات شَتَّى، أراد تعالى وبشكل حاسم ونهائي أن يضع حَدًّا للوحدة التي كان يتمتع بها مجتمع البشر. ولم يكن يريد فقط أن يجعل لكل مجموعة لغة مختلفة بل زرع الاختلاف في قلب اللغة الواحدة. لهذا نرى أن الكثير من الناس اليوم يعجزون عن التواصل فيما بينهم على الرغم من انتمائهم لنفس اللغة والثقافة.

فماذا كانت يا ترى نتيجة الفعل الشنيع الذي أقدم عليه البشر؟ ألم يحدث ما كانوا يخشونه تماما؟ لقد كانوا بفعلهم الشنيع ذلك يحاولون تجنب أسباب الضعف والتفرقة، وهاهم في النهاية ضعاف طاعنون في الشتات.

هكذا تدفقت مجموعات كبيرة من البشر من بلاد ما بين النهرين منتشرة في كل جهات الأرض، فشهد العالم بذلك ميلاد اللغات الآسيوية والإفريقية والأوروبية. فيا للنهاية الشنيعة للمشروع البشري الشنيع! لقد توقف بناء المدينة والبرج لأن رؤساء العمال لم يعودوا قادرين على إعطاء أوامر لا يفهمها أحد أبداً. والسلطات لم تعد تفهم ما يقوله المواطنون. كما توقفت معاملات البيع والشراء لأن أحدا لم يعد يفهم أحدا. فعمت الفوضى وأصبح اسم تلك المدينة «بابل «التي معناها «بلبلة «في الكثير من اللغات.

هذا الشتات اللغوي تَوَلَّد عنه بالطبع شتات قومي، فصار لكل قوم لسانا مختلفا وثقافة مختلفة. وشهد العالم لأول مرة ميلاد الفكر العِرْقِي، حيث وقع انشطار الضمير «نحن «إلى «نحن «و«هم «وأصبحت المجتمعات تؤسس مصلحتها على حساب مصلحة بعضها البعض، شاهدة على مدى الدمار الذي أصاب البشر بسبب تطاولهم على قدرة الله.

ولقد توفق الكاتب المغربي عبد الفتاح كيليطو كثيراً في تحليل أبعادِ ذلك الحدث حين قال في كتابه الطريف لسان آدم: «لايُدمر الرب البناء الذي شرع البشر في إنجازه، بل يعاقبهم ببلبلة لسانهم، لسانهم الوحيد الذي بفضله كانوا مجتمعين... ذلك اللسان الذي يمنحهم قدرةً هائلةً بتوجيههم نحو هدف بعينه: اقتحام السماء. بلبلة اللسان تؤدي إلى توقيف أشغال البناء؛ إنها تعادل التَشْظية المجازية للبرج، وانبثاث طموح وحلم. لما لم يعد اللسان الأصلي، الأولي، في ملك البشر، افترقوا وتبددوا على وجه الأرض. حُرموا من عمودية سماوية، فهم يوجهون أنظارهم نحو أفقيةٍ أرضية».

في غمرة هذا الشتات الذي طَوَّحَ بالبشَرية في كل اتجاه فهم العارفون من البشر ما حدث بالضبط. فقد سقط الإنسان بسذاجته المعهودة في فخ إبليس اللعين لأنه أصاخ السمع إليه وسَلَّمَهُ مقاليدَهُ. فكانت النتيجة أن أصبح ضعيفا لا يقوى على إنجاز الأعمال الكبيرة التي كان من قبل قادرا على إنجازها عندما كان المجتمع كُلاً واحدا لا يتجزأ سواء على مستوى اللغة أو الثقافة.

ولم يعد ممكناً تدارك ما حدث لأن الصدع الذي أحدثته خطيئة الإنسان لا يمكن بتاتاً رأبه مهما سلكنا إلى ذلك من سُبُل.

لنتَصَوَّر بطريقة ملموسةٍ ما حدث، ولنتصوّر الرعب الذي يصيبك وأنت تفقد فجأة التواصل مع أفراد أسرتك أو أحد أصدقائك. لتتصور أباك أو أمك أو أخاك أو أختك أو صديقك أو ابنك أو زوجتك عاجزين عن فهمك أو فهم بعضهم البعض بسبب اللغات المختلفة التي أصبحتم فجأة تتكلمونها. ألا يعني ذلك معاناة الآلام المبَرِّحَة للفراق الأبدي؟ بسبب كل ذلك نظن أنّ الفاجعة التي حلت في بابل بالإنسان تعادل في هولها مأساة خروجه من الفردوس.

هكذا يمكن قول إن الخطيئة التي أفضت إلى موت الإنسان الروحي ثم الجسدي هي نفسها التي أفضت إلى موت فكرة المجتمع الإنساني الواحد. تلك الفكرة التي لم يفتأ الفلاسفة يتكلمون عنها إلى

يومنا هذا. لكن أما من أمل جديد؟ أكثب على الإنسانية أن تواصل سقوطها من قمة الفردوس إلى غياهب الهاوية؟

# خليل الله

مضى زمن الطوفان مثلما مضى بعده زمن الشتات الذي قدره الله على البشر كما سبق أن رأينا بأن جعل ألسنتهم مختلفة. ثم أراد الله بعد ذلك أن يرسل إلى الناس نبيا يلهج بالدعوة إليه ويبلغ العالم رسالاته. واشترط في هذا النبي أن يكون شخصا لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا فيما هو يجهر بالحقائق التي يكشفها أمامه. وكان لابد لهذا الشخص أن يكون توَّاقًا ملحاح القلب لمعرفة الله. فاختار تعالى إبراهيم الذي سوف يعرف فيما بعد باسم إبراهيم الخليل.

ترعرع إبراهيم في المنطقة التي تحمل اليوم اسم العراق في مكان يدعى أور الكلدانية. كان اسم أبيه تارح واسم أخويه ناحور وحران. وكان حران هذا هو والد النبي لوط الذي سيكفله إبراهيم بعد موت أبيه، ويصحبه معه إلى فلسطين.

تزوج إبراهيم سارة لكنه لم يرزق منها بولد. وكان أن غادر تارح أور باتجاه الهلال الخصيب فاصطحبوه في رحلته جميعا: إبراهيم وزوجته سارة وناحور وأهله ولوط. وهناك في الهلال الخصيب بنوا مدينة سمَّوها حران على اسم حران بن تارح الذي كان قد توفي قبل أن يغادروا أور. كانوا في الحقيقة يقصدون فلسطين عندما غادروا هذه الأخيرة، لكن تارح لم يستطع المضي أبعد من المكان الذي بنوا فوقه حران. إلا أن الله طلب من إبراهيم استئناف الرحلة إلى أبعد من ذلك.

فقد خاطبه قائلا: «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنيك ألعنهم. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض.»كان الأمر نعمة إلهية لا تصدق خصوصا أنها لم تأت نتيجة أي عمل قام به إبراهيم.

وكان صعباً على إبراهيم أن يفارق أهله وعشيرته ووطنه. لأن فراق الوطن الأم من الأمور التي لا تهون بسهولة على الإنسان لدرجة أنّ أمير الشعراء أحمد شوقي يقول في ذلك:

وطني لو شغلتُ بالخُلدِ عنهُ
نازعتْني إليهِ في الخُلدِ نفسي

لكنّ إبراهيم فهم أن نداء الرب لابد أن يُلبّى وأن طاعته واجبة ومشيئته لا رَادَّ لَهَا. كان عليه أن يترك وراءه أصدقاءه وأفراد عشيرته، وأن يتيمم أرضا غريبة كي يعيش بين أهلها ويعتنق عاداتها ويتكلم لغتها. فما أبهظه من ثَمَن كان عليه أن يؤديه في سبيل طاعة الأمر الذي أوحاه الله إليه ! لكنه كان يؤمن أن الله سوف يباركه ويبارك أبناءه وجميع من سوف يستمع إلى الحقائق التي كشفها أمامه. كما وعده أن يجعل من نسله أمة كبيرة، لذلك يمكن القول أن قبوله نعمة الله التي أسبغها عليه كان بقصد أن يصير هو نفسه مفتاح نعمة على الآخرين، لأنه وعده أيضاً أن خلاص العالم سوف يكون عبر نسله.

بسبب كل ذلك بارك الله إبراهيم، فقد رأى تعالى قوة إيمانه وعزمه وثباته، وعرف أنه سوف يكون نبياً جديرا بإعلان حقائقه الجليلة، لأن إبراهيم كان واثقا وثوقا شديدا في الله مصدِّقًا لكلماته، فلم يشك لحظة في وعد الله له بأن يجعل من نسله أمَّةً كبيرة رغم أنه وسارة لم يكونا رُزِقَا بعد أبناء.

هكذا انطلق الجميع في قافلة كبيرة تضم إبراهيم وأهله وخدمه وقطعان ماشيته قاصدين فلسطين وذلك مصداقاً لأمر الرب، فلم تكن رحلة سهلة أبَداً، بل كانت شَاقَّةً ومؤلمةً ومحفوفةً بالمخاطر من كل نوع.

وعندما دخلوا فلسطين وحَطُّوا رحالهم هناك، كلم الله إبراهيم ووعد أن يهبه ونسله جميع الأرض المحيطة بهم، فكان جواب إبراهيم أن جَثَا مصَلِّيًا لله تعالى شاكرا إيَّاه على النِّعَم التي حباه بها، والتي كان يعرف أنه لا يستحق كبشر ولا واحدة منها. فقدم مثل هابيل تقدمةً تليق بمقام الرب وبعطاياه التي لا يحصيها عدد. لأن رضا الرب كان الهدف الذي طالما سعى إليه إبراهيم والذي بسببه أحرز اسمه «الخليل «الذي سيعرف به فيما بعد، وسيكون جديرا بحمله طوال أيام حياته.

ثم ارتحلوا بعد ذلك جنوبا إلى المكان الذي سوف يدعى بيت الرَّب، حيث بنى إبراهيم مذبحا مصداقا لمحبَّتِه وتفانيه في خِدْمَةِ العَلِيِّ، وفوق هذا المذبح قدم تقدمة أخرى تليق بمقامه تعالى. كانت لديه رغبة عارمة لا تقاوم في أن يَهَبَ جميع ممتلكاته تقدمة لله لأنه هو وحده وَلِيُّ كل النعم التي كان يرفُل فيها.

بعد القصة مع لوط وأعدائه كلم الله إبراهيم ثَانِيَةً ووعد بأن يظل لهُ رفيقا يسير إلى جنبه وترسا يحميه، لذلك لم يكن يخاف شيئا أبداً. غير أن أمرا واحدا بقي غامضا لديه، مقلقا لراحته في كثير من الأحيان. فخاطب الرب قائلاً: «أيها السيد الرب. أية عطية تفرحني إذا بقيت هكذا بلا ذرية. لأنك لم ترزقني أبناء... ولن يرثني بعدي سوى واحد من خدمي «كان سؤالا بسيطا وصادقا من طرف رجل حائر لم يفهم مغزى مباركة الرب له إذا لم يكن بإمكانه أن يورث هذه البركة أحدا من نسله. فأجابه الرب قائلا «ذاك الذي قلت عنه لن يكون وريثك، لأني أعِدُك أن الذي يرثك سوف يكون ولدا من صلبك «وكان إبراهيم وسارة قد بلغا آنذاك من العمر عُتِيًّا، ولم يكونا رزقا في أيام شبابهما أبناء. مع ذلك أخذ الرب إبراهيم إلى الخارج وأراه نجوم السماء، ثم أمره أن يعد نجوم السماء لأن نسله سيكون كذلك.

يورد الكتاب شيئا ذا مغزى عميق بهذا الصدد حيث نقرأ أن إبراهيم «آمن بالربِّ فحَسبه له برًّا «ومعنى ذلك أنَّ برَّ إبراهيم لم يكن نتيجة عمل معين قام به، أو مال تصدق به على المساكين، ولا نتيجة المَرَّات العديدة التي صلَّى فيها لله. لقد اعتبر الله إبراهيم بَارًّا لأنه آمن بكلمة الله وصدقها تصديقاً.

فقد هجر بلده وأهله منذ البداية في سبيل الله، وبنى عدة مذابح، وقدم عليها تقدماتٍ كثيرة وصلَّى وشكر الله كثيراً، وانتصر في عدة معارك لأجل إعلاء كلمَة الله، وعاش حياةً ممتلئةً قَدَاسَةً. لم يكن كاملا، لأن الكمال لله وحده، لكنه عاش في كنف الله محفوفا برضاه تعالى. مع ذلك لم ينل إبراهيم رضا الله لأجل كل تلك الأعمال الصالحة، بل ناله فقط لأجل أنه وثق في الله وصدق وعده.

أمضى إبراهيم زمنا طويلا يتفكر في الله و ملكوته العظيم ونعمه الكثيرة وخيره العميم على بني البشر. فتبدت حقيقته العُلْوِيَّة جَلِيَّةً أمامه وانكشفت قدرته الخالقة، وعرف معرفة الواثق أنه تعالى الودود، الرحيم، الكريم، القدير، كما عرف أنه تعالى الجدير وحده بالثقة المطلقة، والتصديق التام والطاعة الكاملة، لذلك يمكننا القول أن إيمان إبراهيم لم يكن وليد تجربة واقعية معينة، بل كان ثمرة سلوكه في درب الله كخليل لا يكاد يفارق خليله.

# الانتظار الصعب

ظل إبراهيم ينتظر لسنوات عديدة تحقيقَ وعد الرب له بمنحه وريثا من صلبه. وأحست زوجته سارة بالعار لكونها عاقرا لا تستطيع تحقيق أمنيته. ومع مرور الزّمن نفذ صبرها وإيمانها وبدأت تفكر في سبل أخرى للتخلُّص من إحساسها الشنيع بالعار الذي لازمها مثل ظلها سنوات عديدة. فهداها تفكيرها إلى جاريتها هاجر، لأن عادات وتقاليد تلك الأيام كانت تقضي بأن الطفل الذي تلده الخادمة يصير انتماؤه إلي سيدة البيت. فحثت سارة إبراهيم على الزواج من هاجر عسى أن تصبح أُمًّا بواسِطَتِها.

وتحقق ما خططت له سارة فحبلت هاجر من إبراهيم. لكن الغرور انتاب هذه الأخيرة فجأة بسبب ذلك. فأصبحت تكره سيدّتها لكونها امرأة عاقراً، فيما هي الجارية تستطيع الإنجاب. فاغتاظت سارة لذلك واشتكتها لإبراهيم. فأجابها بأن هاجر ملك يمينها وتستطيع أن تفعل بها ما تشاء. فبدأت سارة تعاملها بقسوة شديدة وجفاء. لذلك قررت هاجر الهرب إلى الصحراء، حتى إذا انتابها التعب هناك جلست بالقرب من ينبوع ماء كي تستريح.

وفجأة ظهر لها ملاك الرب، وبأمر من الله تعالى سألها مثلما سأل آدم من قبل سؤالا يعرف جوابه مسبقاً «هاجر، جارية سارة، من أين أنت قادمة وإلى أين تقصدين «فاعترفت أمامه بأنها هاربة من بيت سيدتها سارة.
عندئذ أمرها بالعودة إلى سارة والعمل على طاعتها، ثم أخبرها بأن الله سبحانه وعد أن يمنحها نسلا فوق العَدّ، لأن ابنها الذي تلده من صلبها سيصبح أبا لأمة عظيمة، وستحوز به مجدا بين النساء.

وأمرها الملاك بأن تسمي ابنها إسماعيل الذي معناه «سمع الله «لأنه تعالى سمع شكواها وتضرعها له في ساعة بؤسها وأصاخ لصوت بكائها فاستجاب لانكسارها بأن وعد أن يصبح ابنها. الذي هو ابن لإبراهيم أيضا أمة عظيمة، وبذلك حلت البركة على إسماعيل أيضاً.

لكن العهد الذي أبرمه الله مع إبراهيم كان يقتضي أن يتحقق مسار وعده من خلال ابن الوعد. ومعنى ذلك أن الله حين وعد إبراهيم وريثا له، لم يكن ضرورياً لإبراهيم أن يتدخل كي يساعد في تحقيق ذلك الوعد ! فمع أن إبراهيم وسارة لم يكونا يستطيعان تصور قدرتهما على الإنجاب في سن متقدمة جدا، إلاّ أن قدرة الله عز وجل فوق ما يستطيعه المنطق وما يتصوره العقل البشري، لذلك

(بعد ولادة إسماعيل) كلم الله إبراهيم ثانية، وبشره بابن من سارة. فضحك إبراهيم لاعتقاده باستحالة حدوث ذلك. ثم إنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى إنجاب ابن آخر ما دام الله قد أنعم عليه بإسماعيل. فسأل الله قائلا: «ليت إسماعيل يحيا في رعايتك».

لكن الله كان يرتّب أمرا آخر، فرغم أنه بارك إسماعيل لكونه من ذرية إبراهيم، اقتضت قدرته تعالى أن تحل بركته الشّاملة من خلال الابن الذي سوف يولد بمعجزة منه، لا بواسطة أي شكل من أشكال التدبير البشري. لقد قدر سبحانه أن تكون ولادة إسحاق من سارة خارقة لقوانين الطبيعة والبشر. فتحول ضحك إبراهيم وسارة من استحالة حدوث الولادة إلى ضحك يعبر عن فرحتهما بالابن الموعود الذي طالما انتظراه. وكان ذلك سبب تسميته "إسحاق «التي معناها الضحك.

مع ذلك لم ينس الله إسماعيل لأنه في هذه المرة وعد إبراهيم مباشرة أن يجعل إسماعيل أباً لأمة عظيمة. كما وعد أن يجعله أباً لاثني عشر رئيساً. لكنه أوضح بشكل بيّن أن عهده سوف يبرمه مع إسحاق الذي تنجبه سارة.

ثم في بحر أشهر معدودات حبلت سارة. وأما انقضى الحَوْل حتى وَضَعت إسحاق الذي كان مصدر فرح غامر لأَبَوَيْه بعد كل تلك السنوات من الانتظار. فختن إبراهيم الولد بمقتضى العهد الذي أبرمه مع الله، وقرَّ هو وسارة عينا به، وزاد يقينهما رسوخا بصدق وعود الله التي يمنحها من شاء من عباده. إذ هو تعالى الصادق الذي عليه كل اعتماد.

بعد ذلك لاحظت سارة أمراً ساءها كثيراً. فقد شاهدت إسماعيل في أحد الأيام يستهزئ بإسحاق ويسخر منه بشكل موجع. فقصدت إبراهيم وطلبت منه أن يطرد هاجر وابنها، لأنها تربأ بإسحاق الذي هو ابن الوعد أن يترعرع مع ابن الجارية، فصعب ذلك على إبراهيم لأنه كان يحب ابنه إسماعيل كثيراً، وفكر أن الأمر لا يعدو أن يكون محض شعور بالغيرة من طرف سارة، لكنه مع ذلك صلى ودعا الله أن يرشده إلى حلٍّ لتلك المشكلة.

فأصدر الله أمره الواضح: «لا تحزن بخصوص الولد والجارية، أفعل ما تقوله سارة. لأنه بسارة يكون لك نسل وسأجعل ابن الجارية أمةً أيضا لأنه من ذريتك«

أطاع إبراهيم أمر الرب، وفي الصباح الموالي صرف هاجر وإسماعيل وأعطاهما زاداً يكفيهما في الصحراء. لكنهما ضلا السبيل هناك، واستهلكا كل الماء الذي كان بحوزتهما. فوضعت هاجر إسماعيل تحت شجرة، وابتعدت مسافةً عنه حتى لا تشاهده وهو يموت. ثم أجهشت بالبكاء، لأن حزن الأم عظيم جداً على فلذ كبدها.

سمع الرب بكاء إسماعيل، وفي سَوْرَة عطفه ورحمته تعالى أرسل ملاكهُ الذي كلم هاجر قائلا: «ما خطبك يا هاجر؟ لا تجزعي، لأن الله قد سمع بكاء الطفل حيث هو مُلقىً. قومي احمليه وامسكي بيده لأنني سأجعله أمة عظيمة».

ثم أرشدها الله إلى بئر ماء أخذت تغرف منها وتسقي ابنها إسماعيل. نقرأ بخصوص ذلك في التوراة الشريفة: «وكان الله مع الصبي فكبر، وسكن في صحراء فاران، وبرع في رمي القوس. واتخذت له أمه زوجة من مصر« .

# تدبير الرب

وفى الله إبراهيم وعده ووهبه ولدا كريما. لكنه بعد مرور سنين عديدة على هذا الحدث السعيد أحب أن يختبر إيمان إبراهيم. أحب أن يرى ما إذا كان هذا الأخير يحب الهبة التي وهِبَت له أكثر من الذي وَهَبَهَا بنعمته إيَّاه، كما أحب أن يرى إذا كان حبُّ إبراهيم لله هو لذات الله فحسب أم هو حب مقابل ما فعله من أجله. كان الله طبعا يعرف النتيجة مُسَبَّقًا لكنه أراد لإبراهيم أن يعرف هو أيضًا ذلك.

هكذا كلّم إبراهيمَ قائلا: «خذ ابنك الوحيد الذي تحبه، واذهب به إلى أرض موريا. هناك هبه لي تقدمة على مذبحي فوق الجبل الذي سأريك «لقد طلب الله من إبراهيم أصعب طلب يمكن أن يخطر على بال أب$: التضحية بالأبناء، فلذات الأكباد الذين قال فيهم الشاعر:

وإنّما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبّت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني من الغمض

لا نعرف ما إذا كان إبراهيم جادل الرب في طلبه أوْ أبْدى أي شكل من أشكال المقاومة للرغبة الإلهية. كل ما نعرف هو أنه نهض في صباح اليوم الموالي وقطع الحطب اللازم للتقدمة ووضعه على ظهر الحمار ثم غادر مع ابنه وغُلامين باتجاه جبل موريا. المكان الذي ستنتصب فوق مدينة القدس.

كانت المسافة بعيدة حيث استغرق منهم الوصول إلى الجبل ثلاثة أيام. ومن المحتمل جداً أن إبراهيم كان طوال المدة التي استغرقتها المسافة يسير مثقل الكاهل بعبء المشاعر المتباينة التي كانت تنتابه وتثقل عليه من جراء التفكير في اللحظة التي سيضع فيها ابنه الحبيب على المذبح، كان على الأرجح منقبض الصدر مكلوم الفؤاد. فهو لم يخبر أحدا بالشيء الذي أمره الله أن يفعله، كما أن ثقته في الله كانت لاتحد. لذلك واصل طريقه مصدّقاً لوعد الرب، وملبياً لندائه.

في اليوم الثالث من رحلتهم شاهدوا عن بعد الجبل الذي كانوا يقصدونه. فطلب إبراهيم من الغلامين أن يبقيا مع الحمار بينما هو وابنه يذهبان لوضع التقدمة على الجبل ويعودان «سنذهب هنالك لنتعبد برهة ثم نعود إليكما «وقد استعمل صيغة المثنى لقوة إيمانه وثقته في قدرة الله على بعث ابنه من بين الموتى، وإلاَّ ما معنى وعده للغلامين؟ وما معنى وعد الرب له بأنه سوف يبارك العالم أجمع بفضل هذا الولد الكريم.

يبدو أن علامات الجهد كانت واضحة على الأب وابنه وهما يصعدان الجبل. فقد كان حمل الابن ثقيلا لأنه كان يحمل على ظهره حطب التقدمة. أما حمل الأب فكان أثقل لأنه كان حملا معنويا يتعلق بامتحان الذات العسير الذي كان بانتظاره. وكلما اقتربت لحظة الحسم، لحظة تقديم الابن على المذبح، ازداد الحمل ثقلا. لكن في لحظات الصمت العميقة التي كانت تَلُفُّ الأبَ وابنه، كان هذا الأخير لا ينفك يفكر في أمر هذه التقدمة العجيبة. فهو كان يرى الحطب والجمر المتوقد في الوعاء. لكنه لم يكن يرى الأضحية. لذلك خَاطب أباه قائلا «أين كبش الضحية الذي سنقدمه على المذبح ياأبتي؟» ولم يكن السؤال مفاجئا لإبراهيم لأنه كان منذ البدء سؤالا متوقَّعاً ومعقولا.

لكن جواب إبراهيم كان مدهشاً جِدًّا يلمس المرء من خلاله رباطة جأش هذا النبي الكريم المتأتية من قوة الإيمان التي حباه الله بها حيث قال «سيتدبر الله أمر كبش الضحية الذي سوف نقدمه يا ولدي».

بدا الجواب مقنعا لإسحاق الذي صمت، ثم واصل الاثنان صعودهما الجبل، حتى إذا بلغا المكان المخصص للتقدمة جمعا الحجارة وبنيا مذبحاً ووضعا الحطب فوقه. ثم أخذ إبراهيم حبلا وقيد به ابنه. ربما كان سهلا على ولد في ريعان الشباب أن يقاوم أباه المُسِنّ ويتغلب عليه، لكن لا نعثر في أي مكان من الكتاب على ذكر لمقاومة أو صراع أو جدال بين الأب وابنه بخصوص تلك الواقعة. كل ما وصل إلينا من أخبار لا يتحدث إلاّ عن حالة الخضوع التام لمشيئة الله عز وجل. هو الودود، الحكيم، المهيمن الذي قدرته لا تُحد، ومشيئته لا تُرد، ونعمه لا تُحصى عددًا.

حمل إبراهيم ابنه ووضعه فوق المذبح ثم تناول السكين وهم بنحر الضحيَّة البشرية الممددة باستكانةٍ أمَامَهُ. لكن ما إن حاول تمرير السكين على العنق حَتَّى خاطبه ملاك الرَبِّ من السَّمَاء قائلا: «إبراهيم! إبراهيم! «فأجاب هذا الأخير «ها أنذا «فقال له؛ «لا تمس الولد بسوءٍ. لا تفعل شيئًا، أعرف الآن أنك تخاف الله ربك لأنك لم تضن علي بابنك، فلذة كبدك الوحيد.»

وللتو سمع خشخشة أوراق في الأجمة وراءه، فالتفت ورأى كبشا أقْرَناً. فأسرع بفك قيود ابنه ووضع مكانه الكبش. يمكننا بسهولة تصور إبراهيم وهو يتنفس بعمق الصعداء، كمن وضع حملا ثقيلا من على ظهره ووقف لكي يسترجع أنْفَاسَه وينعم بخفة جسده من جديد. هكذا تناول السكين من جديد لينحر الكبش الذي أرسله الله فِدْيَةً لابنه الوحيد.

ثم أوقد إبراهيم النار في حطب المذبح فاحترقت التقدمة وتصاعد دخانها نحو الأعالي وتهلل بها وجه الرب. أما الابن فكان فرحه مضاعفا أضعافا لأن الله لم ينجه وحسب بل فداه بتقدمة من عنده. فاستحق بذلك الخلاص ليس مقابل شيء معين فَعَلَهُ بل لقاء إيمانه ونعمةً من ربه.

نفس الملاك الذي أمر إبراهيم أن يذبح ابنه، ناداه ثانية، حاملا له خبر تبريك آخر من الرب «يقسم الرب باسمه أن يباركك ويضاعف نسلك مثل نجوم السماء ورمل الشاطئ لأنك فعلت ما أمرت ولم تضن بابنك الوحيد علي، وأن يورث أبناءك مدن أعدائهم وتتبارك أمم الأرض من خلال نسلك، لأنك أطعتني».

في هذا التبريك الثاني تتكرر تبريكات الله السابقة لإبراهيم بأن يضاعف نسله عدد الرمل على شواطئ الأرض، لكن يبقى الهدف من التبريك هو دائما نفسه، وهو أنه تعالى بارك إبراهيم لكي يتبارك العالم كله من خلال نسله.
وبذلك يكون الخالق في غمرة محبته العظيمة للإنسان. قد فتح باب الخلاص أمام الجنس البشري. فقد سبق أن وعد آدم وحواء أن يخلق من نسلهما من يدق رأس إبليس، وها هوذا يعلن بوضوح أنه سيختار لذلك واحدا من نسل إبراهيم، وسوف يكون المخلص الذي سينهض ليدقَّ رأس الشيطان ويرأب الشرخ الذي تعمق بين الله وخليقته.
عبد الفتاح كيليطو، لسان آدم (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1995) ص. 16ــ17.

# التحرير من العبودية

أقام إبراهيم وأهله في فلسطين حيث وهب الله له إسحاق ويعقوب واثني عشر حفيدا من هذا الأخير. وكان يوسف أحد هؤلاء الأحفاد، وهو النبي الكريم الذي باعه إخوته عبدا لتجار من مصر والذي أصبح بتدبير حكيم من الرب الرجل الثاني بعد الفرعون هناك. إذ بسبب وجوده في السلطة ستنجو مصر وأغلب منطقة الشرق الأوسط من الهلاك الذي هددها خلال سنين المجاعة القاسية. ولقد استقدم يوسف خلال ذلك أباه يعقوب وإخوته الاثنى عشر صحبته أسرهم، وأسكنهم في منطقة الدلتا في مصر.

إلاّ أن يوسف كما تخبرنا التوراة الشريفة: «قال لهم: لا تخافوا، هل أنا أقوم مقام الله؟ أنتم نويتم لي شرّاً، ولكن الله قصد بالشَرِّ خَيْراً. لينجز ما تم اليوم، لإحياء شعب كثير. لذلك لا تخافوا، فأنا أعولكم أنتم وأولادكم. فطمأنهم وهدَّأ روعهم». لقد تفكر يوسف، النبي الصِدِّيق، بعمق في محبته الله ومغفرته ورحمته، فغفر هو كذلك لإخوته الذين أساءوا كثيراً إليه. فالله تعالى بقدرته العظيمة وحكمته ووده يرتب الأمور جميعا كيف يشاء لصالح من يحب من عباده.

ثم بعد مرور عدة أجيال ( امتدت على مدى 430 سنة) نسي المصريون فضل يوسف عليهم، وبدأوا يخافون الكثرة التي أصبح عليها نسل إبراهيم المتواجد فوق أرضهم. فصار الفرعون يعاملهم بالطريقة التي تعامل بها غالبا كل الأقليات في كل عصر، حيث اضطهدهم، واستعبدهم وحول حياتهم إلى جحيم لا يطاق. وقد وصل به طغيانه أن أمر بقتل كل أطفالهم الذكور.
وقد تزامنت هذه الفترة العصيبة مع ولادة النبي موسى داخل أسرة طالها الاستعباد مثل باقي الأسر العبرانية. فعملت الأسرة المسكينة كل ما في وسعها لإخفائه عن عيون المترصدين. لكنها في الأخير، إذ لم تستطع الاستمرار في ذلك. وضعته في سلة مطلية بالقار (مثل سفينة نوح) وألقت به في النيل. وهناك بتدبير من العلي الحكيم عثرت عليه ابنة الفرعون داخل السلة، فكفلته وربته داخل قصر الفرعون.

هكذا ترعرع موسى وسط البذخ الملكي، بينما أبناء شعبه يرزحون تحت نير العبودية. فتعلم حكمة ومعرفة المصريين، وحظي بما لم يحظ به سوى أبناء النخبة في تلك الأيام. لكنه تعرف على تراث أجداده بواسطة أمه التي دعتها ابنة الفرعون كي تكون مرضعته دون أن تعرف بأنها أمه الحقيقية، فتعلم موسى بذلك لغة وثقافة بني إسرائيل. وذات يوم عندما بلغ الأربعين خرج يتفسح، فشاهد رجلا مصريا يضرب آخر عبرانيا. فهب للدفاع عن الذي من شيعته، وقتل المصري ثم طمره في الرمل ظنا منه أنه إنما يساعد الربّ على إحقاق العدل.

وبذلك أصبح موسى مجرما قاتلا، هو الذي سيصطفيه الله نبيا له، إذ لم تكن نُبوَّته كفيلة بتحصينه ضد الخطيئة، لأن الله لم يكن يختار من بين عباده من ليست لهم خطيئة كي يصبحوا أنبياءه. فلو كان الأمر كذلك لما وجد من بينهم شخصا واحدا يستحق أن يكون نبيًّا. إنّه تعالى بنعمته ورحمته الخالصتين فقط ينتخب من بينهم من يحمل للعالم رسالاته.

عندما علم الفرعون بالجريمة التي اقترفها موسى، لم يجد هذا الأخير من حَلٍّ سوى الهَرَب إلى صحراء سيناء. هناك عمل راعيا لمواشي شُعَيب صاحب مدْيَن، وتزوج ابنته ورُزق منها طفلين. ومكث موسى أربعين عاماً في تلك الصحراء.

ثمّ حدث أنه كان ذات يوم يرعى مواشي صهره فوق الجبل الذي سوف يسمى فيما بعد باسمه «جبل موسى»، فشاهد فجأة عُلَّيقة مشتعلة دون أن تحترق. ولم يكن ذلك سوى ملاك الرب المتجلي من خلال لهب العُلَّيقة. فدفع الفضول موسى أن يذهب ويستطلع الأمر. لكنه ما إن اقترب حتى ناداه الربّ قائلا «موسى! موسى!» فأجاب «هاأنا» فقال الرب «لا تقترب أكثر: اخلع نعليك، لأنك واقف على تراب مقدس»

أعلن الله لموسى عن نفسه مخبرا إيّاه أنه الواحد الأحد إله آبائه وأجداده. فاعترت موسى قشعريرة الرهبة من وجوده المفاجئ في حضرة الله. ولم يتجرأ من شدة خوفه على النظر إلى ملاك الرب. فغطى وجهه. ثم قال الله لموسى: «قد شهدت بحق مذلة شعبي في مصر، وسمعت صراخهم من جرّاء عتوّ مسخريهم، وأدركت معاناتهم. لذلك نزلت كي أنقذهم من يد المصريين، وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض طيبة رحيبة تفيض لبنا وعسلا، أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحوِّيين واليبوسيين. وها هو الآن قد وصل إليَّ صراخ بني إسرائيل، وعاينت كيف يضايقهم المصريون، فهلُمَّ الآن إني أرسلك إلى فرعون كي تخرج شعبي بني إسرائيل من مصر».

لكن موسى تردد كثيرا في حمل الأمانة التي قَلَّدَه الله إيَّاها، لأنه كان شديد الوعي بضآلة شخصه أمام العمل العظيم الذي كان الله عازما أن يكلفه به. كان رجلا يعرف كثيراً مواطن ضعفه. فاعترض في البداية متذرعا بوضعه الاجتماعي الراهن، إذ كيف يعقل أن يجرؤ هو راعي المواشي الذي أمضى أربعين عامًا في الصحراء على التفكير في الذهاب إلى الفرعون. كان لا يزال يذكر بوضوح تفاصيل البروتوكول الملكي المتبع في بلاط القصر. لذلك زاد موسى اقتناعاً أن الوصول إلى سُدَّة الفرعون والمثول أمامه أمر مستحيل الحدوث. لكن جواب الله كان في غاية البساطة «سأكون معك.«بمعنى أن قدرة الله كفيلة بإيصاله إلى هناك، ثم العودة به مصحوبا ببني إسرائيل كي يسبِّحُوه ويعبدوه ويمجدوه فوق نفس الجبل الذي كان واقفا عليه، «جبل موسى».
ثم أبدى موسى اعتراضا ثانيا، وتذرع هذه المرة بافتقاده لأي شكل من أشكال السلطة داخل شعب بني إسرائيل. فكشف الله لموسى اسمه العظيم، وأمره أن يخبرهم أن الواحد الأحد هو الذي بعثه. أمره أن

يجمع شيوخ بني إسرائيل ويقول لهم: «إن الرب إله آبائكم، إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب قد تجلى لي قائلا: إنني قد تفقدتكم، وشهدت ما أصابكم في مصر، وهاأنا قد وعدت أن أخرجكم من ضيقة مصر إلى أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويِّين واليبوسيين. هذه الأرض التي تفيض لبنا وعسلا.«ووعد الرب موسى أن الشيوخ سيستمتعون إلى كلامه، وأن بني إسرائيل لن يخرجوا فارغي الأيدي من أرض مصر.

مع ذلك أبدى موسى اعتراضا ثالثا يخص مصداقية كلامه أمام بني إسرائيل. ما حجته إذا سُئل عن صدق ما يقوله. عندئذ منحه الله ثلاث آياتٍ معجزات يجريها أمامهم مصداقا لوجود الله معه. آية تخص عصاه التي تتحول إلى حيَّة تسعى ثم تعود عصا مثلما كانت. وآية تخص يده التي يدخلها في عبِّه فتخرج برصاء كالثلج من شدة بياضها ثم تعود إلى حالتها الأولى. وآية ثالثة تخص ماء النيل الذي ما إن يسكبه على الأرض حتى يتحول إلى دم.

اعترض موسى أيضا متذرعاً بافتقاره للفصاحة، وعدم إتقانه الكلام. لكن الله أجابه أنه سيهتم بكل مشاكله اللغوية، إذ لن يساعده فقط على إتقان الكلام، بل سيلقنه أيضا ما سوف يقول.

أخيراً التمس موسى من الرب أن يرسل أحداً غيره، لأنه بكل بساطة يشعر أنه لا يليق للقيام بذلك العمل. فلماذا بدا موسى كارها تحمّل الأمانة الإلهية إلى هذا الحد؟ الجواب هو أنه كان واضعا نصب عينيه على الدوام مقدراته وجهده ومهاراته، ومدركا عجزه عن الاضطلاع بالمهمة الملقاة على عاتقه. لكن جواب الله على ذلك كان يتلخص بعمق فيما يلي: «ليس المهم صلاحيتك أو عدم صلاحيتك لتنفيذ ما أطلبه منك. إنني أنا نفسي سوف أكون معك وأنت تؤدي المهمة العظيمة».

وعندما تمادى موسى في الشك بنعمة الله وقدرته، احتدم غضبه تعالى، لأنه كان يريد منه أن يفهم أن قدرة أي إنسان واستقامته مهما بلغتا لا تجعلانه جديراً باصطفاء الله له من بين عباده. بل هي فقط نعمة الله التي تحل عليه. كما أن تحرير بني إسرائيل من عبوديتهم في مصر لم يكن ليتِمَّ من خلال قدرة البشريَّة التي تبقى عاجزة مهما بلغت عن تحقيق أي شيئ، بل هي فقط قدرة الله التي لا تُحَد.

اقتنع موسى أخيراً بكلام الرب، إذ لا أحد يستطيع الوقوف طويلا أمام مشيئته. ثم رجع إلى صهره، وأخبره برغبته في العودة إلى مصر ليرى إذا كان أهله لا يزالون على قيد الحياة. فباركه وودعه. ثمّ خطا موسى أول خطوة في الطريق التي رسمها الرب لتحرير بني إسرائيل من عبوديتهم.

# آية الدم

عندما ذهب موسى إلى الفرعون وكلمه بشأن تحرير بني إسرائيل أصبح على العكس أكثر إمعانا وقسوة في استعبادهم. إذ فرض عليهم أن يواصلوا إنتاج اللَّبن لتشييد صروحه العظيمة دون أن يُمِدَّ هذه المَرَّة بالمواد الخَامِّ لذلك. فقد أصبح لزاما عليهم أن يجمعوا أولا المادة الخام، ثم يواصلوا في

نفس الآن إنتاج نفس الكمية من اللَّبَن التي دَأبُوا على إنتاجها. فخار بسبب ذلك عزم بني إسرائيل لأن الرَّب عِوَضَ أن يحررهم بدا وكأنه يحاول أن يورطهم في المزيد من العبودية.

لكن موسى ثبت بفضل الشجاعة التي استمدها من العلي القدير، وامتلأ يقينا بوعد الله له أن يكون باستمرار معه ويحرر شعبه. كان يعلم أن لا يد له كبشرٍ في ما يحدث، وأن يد الله هي التي كانت تعمل من خلاله. فقد باتت مهمته تتلخص في طاعة الرب وتنفيذ أوامره وما تبقى يتكَفَّلُ به هو سبحانه.

ثم طلب الله من موسى أن يجري عشر آياتٍ أمام الفرعون. الهدف من كل واحدة منها إظهار قدرة الرب الواحد الأحد. ويطلب من الفرعون أن يطلق شعب بني إسرائيل كي يغادروا أرض مصر. كانت أولى الآيات هي آية العصا التي تحولت إلى إلى حَيَّة. لكن سحرة مصر هَبُّوا جميعا وصنعوا مثل ذلك. فابتلعت عصا موسى أفاعيهم جميعا. ثم بسط موسى بعد ذلك عصاه على نهر النيل فتحول ماؤه العذب إلى دم وبات غير صالح للشرب. وكذلك فعل سحرة مصر. لكن تفوق معجزة الرب واتساع مداها أبدى للعيان قوة الله القاهرة وغلبته على إله النيل المزعوم الذي كان المصريون يمجدونه.

ثم كانت آية الضفادع التي ملأت أرض مصر. ومثل ذلك أيضا صنع سحرة مصر. لكن هؤلاء لم يستطيعوا بعد ذلك تقليد آيات الربِّ الأخرى التِي تَلَت مثل البعوض الذي ملأ الأرض، ثم الذباب، ثم هلاك المواشي، ثم الدُّمل الذي أصاب أهل مصر ،ثم البَرَد الذي دمَّر الزرع والماشية، ثم الجراد الذي أتى على ما تبقى، ثم الظلام البهيم الذي خَيَّمَ فِي أرجاء مصر لمدَّة ثلاثة أيّام. وكان الفرعون يَعِدُ بعد كل آيةٍ أن يترك الشعب يغادر. لكن قلبه كان سرعان مايتصَلَّبُ بمجرد أن يرفع الله بَلاءَهُ.

أخيراً كَلَّمَ الله موسى. وأخبره أنه سوف يجري آية أخرى ترغِمُ الفرعون على إطلاق شعب بني إسرائيل. لكنه أخبره أيضا بأشياء أخرى كان على الشعب أن يقوم بها. فقد كان ملاك الموت سيجتاز في وسط مصر، ويهلك كل بكر فيهاـــ من الإنسان والحيوان ـ داخل كل أسرة. تلك كانت طريقته للقضاء على آلهة مصر الكاذبة. أخبره أنه لن يميز بين المصريين والإسرائيليين، لأن بكر كل أسرة يموت ما لم تضع الأسرة علامة الدم على البيت الذي تقيم فيه.

كان هذا الحدث هو بداية التقويم العبري. فقد أمر الله تعالى أن تنتقي كل أسرة حملا ذكراً لا يتجاوز السنة، خِلْواً من كل عيْبٍ. ثم يقوم أهل المنزل بذبحه عند المساء. بعد ذلك يأخذون باقة زوفا ويغمسونها في دم الحمل ثم يطلون بها عتبة الدار العليا (الأسكُفَّة) والقائمتين. وفي تلك الليلة يتناولون الحمل مشويا بالنار، ولا يبقون منه شيئا البقَّة إلى الصباح. يتناولونه وقد هيأوا أنفسهم تماما للرحيل. وتسمى تلك الوجبة فِصْحاً لتبقى شاهدة على عبور ملاك الموت عن أبواب الذين أطاعوا الربَّ ووضعوا علامة الدم على بيوتهم فلم يمسهم أذىً. كما تصبح تلك الوجبة عيدا سنوياً وتذكاراً مستمِراً بتحرير الربِّ لبني إسرائيل من العبوديَّة، ويدوم ذلك العيد سبعة أيَّامٍ لا يأكلون خلاله خبزاً بخمير. وكل سنَةٍ يشرحون لأبنائهم سبب ومغزى ذلك الاحتفال حتى يحيط كل جيل بدلالة تلك الطقوس.

كانت هذه المرة الثانية التي أعطى الله أمره من خلال كلمته بذبح حمل فدية لأرواح بشرية. فقد حدث ذلك أول مَرَّةٍ عندما فدى ابن إبراهيم بالكبش. إذ الحاملون علامة الدم المهراق فداءً يتخلصون من غضب الله. أما غيرهم فموتاً يموتون.

يؤدي بنا هذا الأمر إلى طرح مجموعة من الأسئلة الهامَّة التي تتمحور حول إحدى الحقائق الروحية الجوهرية. لماذا طلب الله من بني إسرائيل الاحتفال بعيد الفصح كل سنة. لماذا حثهم على سرد وقائع تلك الليلة لأطفالهم المرة تلو الأخرى؟ لماذا جعل من ذلك اليوم بداية السنة العبرية؟ هل ذلك محض حنين لتاريخ مضى؟ بالطبع لا! فقد كان الهدف هو تذكيرهم بأن الخلاص الذي تَمَّ في الماضي سوف يتم أيضا في المستقبل. فالحفلات والأعياد هي مناسبات للتذكير بالحقيقة.

هناك سر ربَّاني عظيم في هذه القصة سوف يتم الكشف عنه كاملا فيما بعد. لنتذكر فقد أن الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا في تلك الليلة حملا خاليا من كل عيْب§، لأن التأكيد على خلو الحمل من العيب سيكون له مغزى عظيم سوف تتم الإحاطة بكل أبعاده لاحقاً.

أمَّا بنو إسرائيل فقد أطاعوا أمر الرب، حيث انتقى أهل كل بيت حملا وذبحوه ووضعوا دمه على عتبة الباب العليا وقائمتيه. ثم تناولوه مهيئين أنفسهم للرحيل مثلما أمرهم الرب. كما طلبوا من جيرانهم المصريين ذهبا وفضة وقعدوا ينتظرون. لأن الله أمرهم أن لا يغادروا بيوتهم حتى الصباح. واجتاز ملاك الموت في تلك الليلة أمام كل باب عليه دم ولم يصب أهله بأذى، بينما أهلك البكر من كل بيت آخر.

في منتصف تلك الليلة استيقظ الفرعون واكتشف ابنه البكر مَيِّتاً. فامتلأ قلبه حزنا ورعبا، واستدعى موسى وهارون إليه وأخبرهما أن بني إسرائيل أحرار في الخروج من مصر مصحوبين بغنمهم وبقرهم. فكان ذلك تحقيقا لوعد الربِّ لهم بتحريرهم من النير الذي طالما رزحوا تحته.

كانوا مهيئين أنفسهم تماما للرحيل، لذلك لم يأخذ خروجهم وقتا طويلا. ولم ينسَ موسى أن يحمل عظام يوسف معه لأنه أخذ عهداً على بني إسرائيل بذلك. كان الجميع مسلحين للقتال، لكنهم أُمِرُوا ألا يستعملوا أسلحتهم ضد المصريين.

هاهم أخيرا أحرار! إلا أن ذلك لم يكن يعني التخلص فجأة من كل المتاعب. فقد كانت رحلة الحريَّة قد ابتدأت، لكن دربها كان لا يزال طويلا. ثمّ قادهم الرب بأن جعل عمود سحابٍ يتقدمهم نهاراً، وعمود نَارٍ يضيء لهم ليلا. لكنه لم يسلك بهم الطريق المباشر إلى أرض كنعان، بل قادهم جنوبا عبر صحراء البحر الأحمر، حيث نصبوا خيامهم أولا في سكوت ثم بعد ذلك في إيثام.

ثم فعل الرب شيئاً عجيباً، إذ أمر موسى أن يأخذ بني إسرائيل عبر طريق توهم الفرعون أنهم سقطوا في ما يشبه الكمين، فتحدثه نفسه بملاحقتهم، وذلك بالضبط ما حدث. إذ عندما سمع الفرعون أن بني إسرائيل هائمون بين الصحراء والبحر الأحمر حدثته نفسه بالإيقاع بهم وأسرهم من جديد. فجمع جنوده ومضى في إثرهم. لم يبد أنه استفاد شيئا يذكر من الأمور العظيمة والآيات العجيبة التي أجراها الله أمام عينيه. كما أنّ الحاشية أزعجها الفقدان المفاجئ لذلك العدد الهائل من اليد العاملة المجَّانية.

عندما شاهد بنو إسرائيل الفرعون وجنوده قادمين نحوهم أخذهم رعب شديد. فالآيات العظيمة التي أجراها الله أمامهم في مصر لم تترك كبير أثر في قلوبهم أيضاً. فأشبهوا في ذلك الفرعون الذي لم يتعظ حق الموعظة. لم يؤمن بنو إسرائيل أن الله يريد لهم الخير حقًّا، وأنه سيقودهم بسلام إلى

الأرض الموعودة. لذلك سألوا موسى ساخرين إن كان أخرجهم ليموتوا في الصحراء بسبب انعدام القبور في مصر! وقالوا له: «ألم نقل لك في مصر: دعنا وشأننا نخدم المصريين؟» فطلب موسى من بني إسرائيل ألا يخافوا ويحزنوا، وأخبرهم أن الرب سوف يحارب عنهم، وأن عليهم فقط أن ينتظروا بهدوء خلاصه.

ثم نقل الله عمود السحاب الذي كان يتقدم بني إسرائيل وجعله سَداً من الضباب الكثيف بينهم وبين المصريين الذين لم يستطيعوا لذلك رؤية شعب بني إسرائيل. في نفس الآن عصفت ريح شديدة، حتى إذا بسط موسى يده ولوَّح بعصاه انشقَّ البحر، ولاح في وسطه طريق يؤدي إلى الشط الآخر. فاندفع فيه بنو إسرائيل، بينما انتصب الماء من سورين عن يمينهم وشمالهم. واقتفى المصريون أثرهم على نفس الطريق، لكن ما إن فعلوا حتى وجدوا مشقة كبيرة في جَرِّ عرباتهم. فانتابهم الرعب وحدثوا أنفسهم بالهرب عندما ذكروا آيات الرب في مصر.

وواصل بنوا إسرائيل العبور إلى الشط الآخر، حتَّى إذا اجتازوا جميعا أمر الله موسى أن يبسط عصاه فوق البحر فارتَدَّ إلى مجراه، وانطبقت مياهه على الفرعون وجنوده الذين غرقوا جميعا. وبذلك حقق الله جزءا من وعده لبني إسرائيل الذين باتوا أحراراً كي يعبدوه ويقوموا على خدمته وتمجيده.

# شريعة الله

تقدم بنو إسرائيل وسط الصحراء بعد خروجهم من مصر، وساروا يضربون في مجاهلها، ويجتازون مسالكها الوعرة قاصدين جبل سيناء حيث وعدوا أن يتلقوا وصايا الرب عبر نبيه موسى. وقد صادفوا في الطريق مصاعب جمة إذ نفذ ماؤهم مرتين ولم يجدوا ما يطفئون به عطشهم. فمرةً عثروا على نبع ماءٍ مر لا يصلح للشرب ،ومرةً لم يعثروا على الماء بتاتاً. كانت درجة الحر مرتفعة، ثقيلة الوطأة، وسط تلك الصحراء المترامية. وكانوا خائفين بسبب ذلك. لقد افتقدوا فجأة الدعة والطمأنينة التي كان يمنحها جريان النيل اللا متناهي، وذكروا الأجواء اللطيفة والرطبة لأصياف عديدة قضوها في مصر. فتملكهم شعور عميق بالفزع لأنهم لم يكونوا بعد قد وثقوا بشكل عملي في الرب. نعم! لقد آمنوا بوجوده. لكن ثقتهم بقدرته على تلبية حاجاتهم اليومية كانت لاتزال ضعيفة. لذلك سألوا موسى متذمرين "ماذا! إذا لم نجد ماءً البتة؟ ماذا سيكون مصير أبنائنا؟ فلذات أكبادنا؟ ماذا سيكون مصيرنا؟«

ولأن الله يحب عباده المُكْرَمين نظر إلى خوف بني إسرائيل بعين الغفران والرحمة، حين استغاث به موسى، ولبَّى تعالى حاجتهم للماء. ففي المرة الأولى أمر الله موسى أن يلقي بقطعة خشب في النبع المر، فاستحال ماؤه للتو عذبا صالحا للشرب. وفي المرة الثانية أمره أن يضرب بعصاه الحجر، فانفجر هذا الأخير ماءً بمجرد أن فَعَل.

واحتاج بنو إسرائيل أيضا للطعام، فتذمروا على موسى مثلما فعلوا معه حين احتاجوا للماء. وذكروا له وفرة الطعام في مصر، وإحساسهم الدائم بالشبع هناك بسبب توفر أسبابه من لحم

وخضروات طرية وفواكه طازجة. كانت حقول مصر الخضراء بغلالها الوافرة لا تفتأ تدغدغ مخيلاتهم. ثم استجاب الله تعالى مرة أخرى لشعبه بسبب محبته العظيمة له ورأفته به، وأرسل على بني إسرائيل مادةً تُسَمَّى المن كانت تكسو الأرض كل صباح، فيجمعونها ويطحنونها ذرورا مثل الدقيق، ثم يصنعون منها خبزاً. واستمرت معجزة المَنِّ هذه أربعين سنة هي مدة عبور بني إسرائيل للبريّة.

واختبر الله بني إسرائيل مرةً أخرى عندما خرجت قبيلة العمالقة لحربهم. فقاد يشوع جيش بني إسرائيل للقائهم، بينما وقف موسى يُصَلّي لأجلهم فوق قمة تَلٍّ يشرف على ميدان المعركة .فكان كلما رفع يديه بالصلاة، تنطلق قوة الله دافعةً بني إسرائيل أمَاماً في جهة أعدائهم. لكنه متى تعب وخفضهما يحدث العكس ويتقدم العمالقة. فكان آخرون يساعدون موسى بإسناد يديه حتى تظلا مرفوعتين فيما هو يصلي. وبذلك انهزم جيش العدو في ذلك اليوم هزيمة نكراء.

وانصرمت ثلاثة أشهر على خروج بني إسرائيل من مصر، ووصلوا إلى الجبل. فصعد موسى منفرداً للمثول أمام الرب وتلقّي رسالاته. فأمره الله تعالى هنالك أن يخبر بني إسرائيل أنهم إذا أطاعوا أمره يصبحون مملكة كهنة وأمة مقدسة. فعاد موسى إلى الشعب وأخبر الشيوخ جميع ما قال له الرب. فأجابه الشعب بحماس: "سوف نعمل كل ما أمر به الرب «غير مدركين أن الإنسان عاجز عن أن يطيع الرب طاعة تامة. إذ منذ سقوط آدم وخروجه من جنة عَدْن لم يستطع أحد أن يطيعه كما أمر يسَبَب أن روح الإنسان ماتت موتاً.

ثم أمر الله موسى أن يقيم حدودا حول الجبل لا يتخطاها الشعب، لأنه تعالى أراد أن يبين لهم مدى قداسته المطلقة التي لا تحتمل أن تمس طرفها خطيئة واحدة. فهو سبحانه القدوس الذي لا يتغاضى عن خطأ مهما صغر. وصعد موسى إلى الجبل من جديد ليكلم الله وينال استجابته.

فدخل وسط ظلام كثيف يشبه الظلام الذي خيم على الكون في بدء الخليقة. ولشدته لم يستطيع أحد معرفة ما يدور بداخله. ومثلما حدث عند بدء الخليقة، نطق تعالى وسط ذلك الظلام وأعطى موسى تعاليمه الصارمة. فقد حظر على الشعب الاقتراب من الجبل، وسمح لموسى فقط أن يقف في حضرته ويكلمه، وأخبره أن كل من تخطى الحدود المرسومة يهلك. كما أمر الشعب أن يتطهروا، ويلبسوا ثيابا نقية إشارة منه تعالى إلى الحياة الجديدة التي تنتظرهم. وفي اليوم الثالث دَوَّت رعود وبروق، فأصاب الناس رعب شديد، وذهلوا بسبب الرهبة العظيمة التي رافقت حضور الربِّ. عندئذ قاد موسى الشعب خارج المخيم، واتجه به إلى سفح الجبل كي يلاقي الربَّ. فأرسل سبحانه دخانا عظيما جعل يدور مثل دوامة فوق قمة الجبل، بينما ارتفع دوي بوق بشدة إيذانا بحضوره. ونادى الله موسى كي يصعد إلى قمَّة الجبل، فَفَعَل. ومرة أخرى أمره سبحانه أن يرجع إلى الشعب ويحذرهم من اقتحام الحدود المرسومة حول الجبل.

**<u>ثم أوحى الله تعالى إلى موسى الوصايا العشر التالية:</u>**

1 ـ أنا هو الرب! إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ديار عبوديتك. لا يكن لك آلهة أخرى سواي [ لكن المشكلة أن العديد من الناس يتخذون آلهة أخرى سوى الله ـ مثل المال والسلطة والجنس إلخ. وهذه تستحوذ على اهتمامهم أكثر منه تعالى. كما يمكن القول أن آلهة الإنسان المزيَّفة هي كل الأشياء والأفكار التي لا يفتأ يلهث وراءها، واضعا كامل ثقته ورجائه فيها. إذ ما أكثر الذين جعلوا المال

والسلطة والجنس آلهة يخلصون لها العبادة صباح مساء ولا يقبلون بسواها. فمن السهل على الإنسان أن يقول لسانه «أومن بالواحد الأحد» بينما قلبه يضمر الولاء لشيء آخر].

2 ـ لا تنحت لك صَنَماً، ولا تصنع صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من أسفل الأرض. لا تسجد لها ولا تعبدها، لأني أنا الرب إلهك، إله غيور، أفتقد آثام الآباء في البنين حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأبدي إحسانا نحو ألوف الأجيال من محبي الذين يطيعون وصاياي. [بالإضافة إلى الأصنام بالمعنى الحرفيِّ للكلمة، هنالك أصنام مجازية أو مفاهيمية مثل الشرف، والمتعة، وغيرها يعبدها الإنسان ويقصر عليها قيامه وسجوده].

3 ـ لا تنطق باسم الربِّ إلهك باطلا، لأن الربِّ يعاقب من نطق باسمه باطلا [ نرى العديد من الناس يقسمون بالله على أشياء يعرفون مسبقا أنها ليست صحيحة. كما يتشدقون باسمه تعالى سمعة منهم ورياء حتى يؤثروا على الآخرين بظاهر سلوكهم. وهكذا لا يفتئون ينطقون باسم الرب القدوس باطلا من خلال هذه الممارسات وغيرها].

4 ـ أذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتقوم بجميع مشاغلك، أما اليوم السابع فتجعله سبتا للرب إلهك، فلا تقم فيه بأي عمل أنت، وابنك أو ابنتك أو عبدك أو أمتك أو بهيمتك أو النزيل المقيم داخل أبوابك، لأن الله قد صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع. لهذا بارك الرب يوم السبت وجعله مقدساً. [الهدف من هذه الوصية هو حث الناس على إفراد وقت معين للتفكير في الله وعبادته، لكن أغلب هؤلاء مشغولون طوال الوقت بأمور أخرى سوى التذكر في الله ومشيئته].

5 ـ أكرم أباك أمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يهبك إياها الرب إلهك [لا يكفي أن يذكر الإنسان والديه بخير بل عليه أن يطيعهما ويحسن إليهما].

6 ـ لا تقتل [حين يغضب شخص على شخص آخر، أو تأكل الغيرة والحسد قلبه من ناحيته حتى يتمنى زواله أو قتله فإن فعله هذا بالنسبة لله تعالى لا يختلف عن جريمة القتل. نتذكر قصة قابيل، وكيف أن الغضب الذي انبثق فجأة في قلبه، والرغبة في زوال أخيه من الوجود، كانتا خطوته الأولى على درب الجريمة].

7 ـ لاتزن [عندما يفكر شخص ما في ربط علاقة جنسية مع شخص آخر خارج الشرعية الزوجية، فإن الله تعالى يعتبر مجرد هذا التفكير الأثيم شكلا من أشكال الزنا. بعد ذلك سيوضح لنا أكثر حين يقول في إنجيله الشريف: «سمعتم أنه قيل: لاتزن! أما أنا أقول لكم: كل من ينظر إلى امرأة بقصد أن يشتهيها فقد زنى بها في قلبه]

8 ـ لا تسرق [هناك طرق عديدة يمارس الناس من خلالها السرقة، فهم يسرقون عندما يقبضون الرشوة، ويسرقون عندما يغشون، ويسرقون عندما يتهربون من الضرائب المترتبة عليهم، ويسرقون عندما يستغلون بعضهم البعض، وعندما يستخلصون أكثر مما يستحقون على بضاعة أو خدمة].

9 ـ لا تشهد زوراً على جارك [عندما ينهمك الناس في النميمة والغيبة، فإن ذلك شهادة بالزور في حق جيرانهم أو أصدقائهم أو معارفهم، وعندما يفترون الأقاويل على بعضهم البعض فإنهم يقترفون نفس الجُرْم ].

10 ـ لا تشته بيت جارك، ولا زوجته، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئا ممَّا له [حين يحسد شخص ما شخصا آخر، أو يشتهي ما لديه، فإنه يخل إخلالا بهذه الوصية].

لكن للأسف لم يستطع أحد على مر التاريخ، ولن يستطيع أبداً العيش حسب المعايير التي وضعها الله تعالى في وصاياه، لأن شريعته تلك لم تكن تمس، مثلما قد يبدو، ظاهر السلوك البشري وحسب. بل كانت تمتد عميقا إلى الأفكار والرغائب التي تعتمل في عقل الإنسان وقلبه. فقد أراد سبحانه أن

يبين لنا أنه ينظر إلى القلوب التي في الصدور ويهتم بما تحتويه، مادامت الأفعال محض انعكاس لما في تلك القلوب.

لذلك أدرك أولئك الذين فهموا هذه الشريعة حق فهمها أن قداسة الله مطلقة، بحيث لا يمكنه تعالى أن يتجاوز عن الخطيئة، أو يتظاهر بعدم وجودها، أو يتغاضى عنها في حضرته. ففوق قمة جبل سيناء أنزل تعالى المعيار الذي قرر بمقتضاه محاكمة أفعال الإنسان. وكم كان بديهياً أن هذا الأخير سوف يعجز عن السلوك وفقاً لذلك المعيار، وسيبقى أمله معقودا على رحمة الله الواسعة التي عليها وحدها اعتماده. كان معياراً صارما جِدًّا، تبيَّن بوضوح من خلاله أن الطريق إلى الجنة لا يمر أبداً عبر الشريعة، وألا لما كان بوسع أحد أبداً الفوز بدخولها.

# يوم الكفارة

عند الغروب، على تلة خارج المخيم جلس رجل مطرق الرأس، ساهم الفكر، وقد بدت عليه علامات قلق واضطراب شديدين. كان يفكر في السرقة التي اقترفها في حق أحد أصدقائه، إذ اختلس منه مبلغا من المال. لكنه ندم فيما بعد على فعلته، فأعاد المال إلى مكانه واعتذر إلى صديقه. فقط لم يغب عن ذهنه انه ارتكب خطيئة ضد الله تعالى الذي حكم على روح الخاطئ بالموت. فما العمل؟ كان يعرف أن قداسة الله مطلقة لا تحتمل شائبة خطيئة واحدة، لذلك لا يمكن أن يغفر ذنب أحد هكذا ببساطة، لأنه تعالى سينتهك جوهر قداستة. كان الرجل يعرف كذلك أن الله رؤوف ورحيم بعباده. لكن هل يناقض تعالى ذاته من أجل إظهار رأفته ورحمته؟

لهذا السبب بدا الرجل قلقاً، شديد الاضطراب. ماذا يفعل لكي يتحرر من عبء خطيئته، وينعم برضا الله من جديد؟ هل يكفي أن يفعل الكثير من الحسنات؟ طبعا لا! لأن الله يتوقع أن يفعل كل واحد ذلك دون أن يكون قد ارتكب خطيئة. فَفِعْلُ الحسنات وتجنب السيئات أمران نص عليهما الله وفرضهما على كل إنسان. لقد تاب الرجل وندم بشدة على ما فعل. وحتى صديقه الذي ارتكب في حقه السرقة صفح عنه. لكن لا جدوى من كل ذلك لأن الأمر يتعدى مشيئة الإنسان. فهو لو عرض جريمته أمام موسى لأعتبره مذنبا يستحق العقاب.

بينما الرجل على تلك الحال من الحزن والقلق، سمع صوتا. فانتبه، وإذا رجل يقود تيساً ويتجه نحو البرية القاحلة. فناداه «أنت هناك، أين تتجه؟» أجاب الآخر: «إنني أقود هذا التيس إلى البريّة تكملةً لكفارة عن خطيئة ارتكبتها.«وإذ لمس في عينيه الرغبة لمعرفة المزيد قال له: «إذا أردت معرفة المزيد فعد إلى المخيم واسأل أحد الكهنة».

نهض الرجل للتو، وقفل عائدا بسرعة نحو المخيم، قاصدا الجهة التي توجد فيها خيمة الربِّ. وهناك رأى بعض الكهنة يتجاذبون أطراف الحديث، فاقترب منهم قائلا: «لقد شاهدت رجلا يقود تيسا في البرية، وأخبر أنه إنما يفعل ذلك تكملةً لكفارة عن خطيئة. فما معنى ذلك؟«

فأجابه أحد الرهبان أن الله أعطى موسى شريعة تخص التكفير عن الخطايا التي يرتكبها الشعب، وأن اليوم هو يوم أول احتفال بالكفارة، وأول أيام الكفَّارة الذي سيستمر الاحتفال به كل سنة. ففرح الرجل وقال «إذن قد دبر الله طريقة للتكفير عن الخطيئة. لكن ما معنى اقتياد التيس إلى البرية؟» فشرح له الكاهن أن الأمر يتعلق في الحقيقة بتيسين لا عيب فيهما يختارهما الكاهن الأكبر ويلقي عليهما القرعة، ثم يقرب التيس الذي وقعت عليه القرعة ذبيحة خطيئة. إذ مثلما ذبح إبراهيم الكبش بدل ابنه، كذلك يموت التيس بدل الشخص الذي اقترف الخطيئة، فهو فدية لروح الخاطئ حتى لا تموت. حياة مكان حياةٍ. لكن قبل أن يُذبح التيس كان على الكاهن الأكبر أن يذبح ثور خطيئة عن نفسه وعن باقي الكهنة. ثم بعيداً عن المذبح الذي تمت تقدمة الثور عليه يأخذ جمرا متقدا ويلقي عليه البخور. فتتصاعد الرائحة الزكيَّة تقدمة أخرى للرب.

بعد أن يذبح الكاهن الأكبر التيس الذي وقعت عليه القرعة يأخذ دم هذا الأخير، ويرش منه داخل خيمة الرب إشارة إلى أن الموت قد حل. فيكفِّر ذلك الدم عن خطايا الشعب، وتتحقق به عدالة الله ونِعَمُ رحمته.

تنفس الرجل الصعداء وتحقق أن بإمكانه أخيرا التكفير عن خطيئته. وإذ هم الكاهن بالانصراف تذكر الرجل مسألة أخيرة فبادره قائلا: «انتظر من فضلك قليلا. لم تخبرني بمغزى اقتياد التيس إلى البرِّية».

فشرح له أن الكاهن الأكبر بعد أن يقوم بذبح التيس الأول الذي وقعت عليه القرعة، يضع يديه على رأس التيس الثاني إشارة رَمزية إلى اندماجه معه، ويعترف بخطاياه وخطايا بني إسرائيل إشارة رمزية أخرى إلى أن التيس حمل جميع خطايا الشعب، ثم يأخذه شخص ليطلقة في البرِّيّة. وبذلك لا تكون الخطايا قد غُفِرَت وحسب، بل رحلت مع التيس الثاني بعيدا ولن تعود كي تؤرق الشعب من جديد. وبعد أن يتم كل ذلك يغتسل الكاهن الأعظم والشخص الذي قاد التيس إلى البريّة إشارة إلى طهارة الجميع.

هكذا ارتاح صاحبنا أخيراً من العبء الذي طالما أقض مضجعه. فرجع إلى مكانه فوق التلة التي خارج المخيم وهناك تفكر بخشوع في عظمة العناية الربّانية، وشكر الله من قلبه على ما فعله من أجله. فالإله العظيم الذي وسع ملكه تعالى السماوات والأرض لا يفتأ يهتم بعباده جميعا، لأن ضآلة الأرض وتفاهة كل المخلوقات عليها مقارنة مع عظمة ملكوت الرب لم تمنعه من أن يغمر الإنسان بمحبته اللا متناهية ويشمله بواسع مغفرته.

في اليوم الموالي وبينما نفس الرجل يتجول داخل المخيم فكر فجأة في العدد الكبير لجميع الشعب الساكن هناك. فساورته فكرة غيبة: تساءل كيف يمكن لدم تيس أن يكفر عن خطايا كل ذلك الشعب. وزادت حيرته عندما تذكر أن خطيئة واحدة مهما صغرت تستوجب الموت لأن قداسة الله المطلقة لا تحتمل ذرة شائبة، بينما فرد واحد من الشعب يخطئ، شاء أم أبى، مَرَّات عديدة في اليوم الواحد بسبب الطبيعة الخطَّاءة لبني البشر. فعندما ينظر رجل إلى امرأة، أو امرأة إلى رجل نظرة شهوة خارج الشرعية الزوجية فإن ذلك الفعل لا يختلف أمام قداسة الرب عن فعل الزنى نفسه. وعندما يكذب شخص يحسب له كذبه خطيئة أيضا لأنه تعالى الحق ذاته.

عاد الرجل إلى الكاهن وبثّه حيرته بخصوص هذا الأمر، فلم يجد الكاهن نفسه جواباً، واتفق من حيث المبدأ مع المنطق الذي كان يحكم تساؤل الرجل. بأي وجه استطاع دم تيس واحد أن يكفي للتكفير عن كل خطايا الشعب التي لا يحصيها العد.

ثم رجع الرجل إلى مكانه فوق التلة واسترسل من جديد في تأمُّلاته. فتفكر في كونه تعالى يسكن الأبدِيَّة، ولا تحكمه محدوديَّةُ الزمان والمكان التي تحكم بني البشر. لذلك فهو يعرف كل شيء دفعة واحدة خارج الزمان والمكان. يعرف ما يحدث في الحاضر والمستقبل معرفته بما حدث في ماضي الأزمنة. فبأي صورة يكون دم تيس واحد كافيا للتكفير عن كل الشعب؟ الجميع يعرف أن التيس أقل قيمة من الإنسان . والله طبعا يعرف. فما العمل يا ترى لحل هذه المعادلة؟

وشيئاً فشيئا بدأت الحقائق تتكشف بوحي من الله أمام عيني هذا الرجل. فأدرك أن الله الأزلي الأبدي عالم بكل الخطايا التي اقترفها بنو البشر في الماضي وبتلك التي سوف يقترفونها في المستقبل. كما أنه تعالى عالم بما سوف يفعله هو أيضا. ثم فكر الرجل أن يوم الكفَّارة مليء بالرموز الكثيرة، فلماذا لا يكون يوم الكفَّارة نفسه رمزاً لشيء أو شخص قادم من المستقبل يجعله الله التقدمة الحقيقية المستحقة. فماذا أوْ مَنْ يكون ذلك الشيء أو الشخص يا ترى؟

# حاجز الخوف

انحدر يشوع وكالب يجوسان خلال البساتين الممتدة على طول الوادي الأخضر. فشاهدا مختلف أنواع الكروم المحملة بالعناقيد الضخمة التي لم تشاهد أعينهم مثيلا لها من حيث الحجم. كان واضحا أنّ عوامل الطبيعة من تربة خصبة ومطر غزير وشمس دافئة تضافرت جميعا لكي تعطي محاصيل بتلك الوفرة التي لا تكاد تصدقها العين. كان شيئا لم يسبق أن شاهدوه حتى في مصر. وكان موسى عليه السلام هو الذي أرسلهما صحبة عشرة آخرين كي يكتشفوا أرض كنعان، ويعودوا بالخبر اليقين عنها. ولكم أحس يشوع وكالب بالغبطة وهما يذكران وعد الله بأن يورِّث شعبه كل تلك الأرض. فقد كانت المدن التي شاهدوها عبارة عن قلاع محصنة جدا تنتصب في شموخ على تلال مرتفعة. فيما تحيطها الأسوار الضخمة من كل جهة. كما أن سكان تلك الأرض بدوا لهم فارعي الطول بشكل مدهش جعلهم في أعينهم أشبه بالعمالقة.

فجابوا البلاد طولا وعرضا وعبروها من الشمال إلى الجنوب، ولم يتركوا بقعة إلا استكشفوها استكشافاً، واستغرقت رحلتهم أربعين يوما كانت من أصعب أيام حياتهم. فقد كان السكان ينظرون إليهم نظرات الشك والإرتياب. كما أنهم شعروا غير ما مرة بالخطر يتهدد حياتهم. لكن يشوع وكالب كانا يشعران أيضا بوجود الله الدائم معهما، وهو ما منحهُمَا القوة والجَلَدَ والشجاعة طوال الرحلة.

عند عودتهم إلى المخيم كان الناس يتوقفون عن العمل طوال الطريق، وينظرون عجبا إلى عنقود العنب الضخم الذي حمله اثنان منهم على كتفيهم، إذ كان عنقودا لم ير أحد نظيرا له من قبل. أما أطفال بني إسرائيل فقد ساروا في حشد ضخم وراء المستكشفين العائدين وهم يغذون السير وسط المخيم إلى حيث كان موسى وشيوخ الشعب بانتظارهم. وكانت أسئلة الشعب خلال ذلك تنهال عليهم من كل جانب «كيف هي طبيعة تلك الأرض؟» «هل هي خصبة؟» «هل المدن هناك تشبه مدن مصر؟«

وإذ أقبلوا على موسى بلّغوه ما شاهدوه هنالك بالتفصيل. ونقلوا له أخبارا سارةً جداً بخصوص الأرض وخيراتها الكثيرة. غير أن عشرة من بينهم بدأوا ينطقون بتعاليق سيئة من قبيل «الرجال هنالك عمالقة «««نحن أقزام إذا قُورنَّا بهم «««مستحيل اقتحام تلك المدن المحصنة على التلال «««ستبتلعنا الأرض.«كان تفكير أولئك العشرة متمركزاً حول ذواتهم فقط، متجالهين في ذلك الله وقدرته.

استمع يشوع وكالب إلى كلام الرجال العشرة الذين بثوا الرعب في السكان. فتعجب كالب من تناسي الشعب للأعمال العظيمة التي أجراها الله أمام أعينهم عندما أخرجهم من مصر وعبر بهم البحر الأحمر . أما يشوع فَساءه جدا أنهم لم يثقوا في تفوق قوة الرب على أولئك السكان الذين ليسوا سوى بشر ضعاف.

لكن الشعب كان قد تأثر جدا بما سمعه من تعاليق مثيرة للذعر. فبدأ العديد من بني إسرائيل يهمهمون ويتذمر ون. كما دفعهم فجأة غبار الصحراء وحرها الشديد إلى تذكر حقول مصر الخضراء ونسيمها العليل، متناسين جلاديهم الذين كانوا يسومونهم سوء العبودية هناك.

فأهاب بهم كالب قائلا: «لنمض ونتملك الأرض لأننا قادرون حَقًا على ذلك «لكن العشرة الآخرين عارضوه، وأعادوا على سمع الشعب كلامهم عن ضعفهم مقارنة مع سكان تلك الأرض. عندئذ تكلم يشوع وذكر الشعب بأن الرب سيكون حتما معهم إذا هم أطاعوه وفعلوا مشيئته.

لكن الشعب أصم أذنيه، وبدأ يتحدث عن انتخاب قائد جديد له يقوده في طريق عودته إلى مصر حيث الخضراوات الطرية والحقول الغنَّاء والماء المنهمر بوفرة، وحيث الحياة الهنيئة والعيس الرغد تحت الظلال الوارفة. وقد حاول البعض مقاومة الذعر الذي أصابهم والصمود في وجه الأوهام، لكنهم ما لبثوا أن انجرفوا وراء موجة الشك العارمة التي استبدت بكل الشعب. فخر موسى وهارون يصليان للرب لعلمهما مَدَى استيائه تعالى من موقف بني إسرائيل. أفبعد كل ما عمله من أجلهم ينكرون قدرته على إحقاق النصر لهم وسط كافَّة المشاكل، وينكرون وفاءه تعالى بإنجاز وعوده لهم؟

لقد كبر مقتا عند الله ألا يؤمنوا به بعد أن نصرهم وحفظهم ولبى جميع حاجاتهم. وكل ذلك شاهدوه بأم أعينهم. لكنهم كانوا المرة تلو الأخرى يتمادون في الكفر والجحود، حيث عبدوا الأصنام التي صنعوها بأيديهم، رغم أنهم عاينوا مثلما لم يعاين شعب آخر مجد أعمال الرب. كما فضلوا متاع الدنيا وزخرفها الفاني على محبته وطاعته.

ومزق يشوع وكالب ثيابهما من شدة الحزن على جحود الشعب وضعف إيمانه، وحاولا من جديد تهدئة روعه وتشجيعه لكن دونما فائدة. فقد شل الخوف إرادته وعمى بصيرته على طاعة المشيئة

الربَّانية. لقد أراد الله لهم الحياة، وهم فضلوا الموت. أراد لهم العزَّة، وهم فضلوا المسكنة. أراد لهم الغلبة، وهم فضلوا الهزيمة. وباتوا يلهجون بالعودة إلى مصر حيث كانوا قبل أشهر فقط يرسفون في أغلال العبودية.

لا يمكن للمرء إلا أن يبدي إعجابه الشديد بموقف يشوع و كالب. فهذان رجلان اختارا الوقوف في سبيل الحق ضد شعب بكامله دون خوف أو اهتمام بما يقوله أحد. كان همهما أن يفعلا مشيئة الرَبِّ فقط، حيث تخبرنا التوراة الشريفة أن الشعب طالب برجم يشوع وكالب، لكنهما وثقا في الله ولم يحيدا قيد أنملة عن طاعته. وبذلك أثبتا أنهما ذوا عزمٍ وكرامة يصغر في عينيهما بسبب طاعتهما للرب كل عظيم، بعكس أفراد الشعب الآخرين الذين أثبتوا فقط ضعف عزمهم وصغارَ نفوسهم. وهو موقف يلخصه الشاعر العربي أبو الطيب المتنبي بشكل بليغٍ حين يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ
وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتكبر في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائمُ

كره الله ما فعله بنو إسرائيل في ذلك اليوم، فأخبر موسى أنه سوف يبيدهم عن أخرهم، ويجعل منه هو شعبا أعظم. فكان جواب موسى عظيما، إذ قال: «إذا أهلكت هذا الشعب فإن الأمم المحيطة سوف تقول أنك عجزت عن أن تدخله إلى الأرض التي وعدته «ثم ذكر أمام الله صبره تعالى ومغفرته. كما ذكر محبته العظيمة لبني البشر. فأجابه الرب أنه صفح عنهم كما طلب. لكنه أخبره بأن كل ذلك الجيل من الشعب لن يدخل الأرض المقدسة، وأنه سيهيم أربعين سنة في البرية. كل سنة مقابل يوم من الأيام التي قضاها المستكشفون في الأرض التي أرسلهم إليها موسى. فقط يشوع وكالب يدخلان الأرض المقدسة جزاء بثباتهما في الإيمان بنعمة الله ومحبته ووفائه.

ثم أنزل الله وباء فتك بالرجال العشرة الذين شلوا عزيمة الشعب بكلامهم. وعندما رأى بنو إسرائيل ذلك وسمعوا حكم الرب، جأروا بالتوبة ولاحت ساعة توبة. فقد جرى حكم الله بأن يهلكوا جميعا في البريّة، وأن أبناءهم الذين خشوا عليهم من أن يأسرهم العمالقة هم سيرثون مدن هؤلاء. وفي صباح اليوم التالي حاول بنو إسرائيل الزحف لامتلاك الأرض، وتناسوا أنهم لن يتمكنوا من الغلبة إلا إذا كان الربُّ معهم. فانطلقوا معتمدين على قوتهم، وكما كان متوقَّعاً انهزموا شر هزيمة، وعادوا على أعقابهم هائمين في البريَّة، بسبب كفرهم بمشيئة الرب وخشيتهم ممن سواه.

# شفاء الله

ذات صباح بدا سليمان غاضبا. فقد ملت نفس هذا الفتى العبراني الطعام الذي دأب الشعب جميعا على تناوله. إذ عِوض الثوم، والبصل، والكراث، والقثّاء والشمام، وكل الأطعمة التي كانوا

يلتذون بأكلها في مصر، هاهم لا يتناولون في هذه البريَّة القاحلة سوى طعام واحد عبارة عن دقيق أبيض (اسمه «المن ") يكسو بمشيئة الرب الحقول كل صباح. أين هم من السمك الذي كانوا يصطادونه بيسر في قنوات النيل؟ أين اللحوم؟ أين أطايب المأكولات؟ كل ذلك راح منذ غادروا مصر. أما مشكل الماء فحدث ولا حرج، إذ كانوا يعانون طوال الوقت من نذرته، هم الذين كانوا ينهلون من قنوات النيل ما شاءوا منه، ويغتسلون ويَسْبَحون.

انضم إلى سليمان أحد أصدقائه، وما لبث هو الآخر أن أبدى تذمره من الرتابة التي باتت تطبع حياتهم جميعا في تلك الصحراء. فالطعام مُمِلّ، والماء شحيح، وليس سوى الفراغ والضجر اللذين يلقيان بكلكلهما عليهم كل يوم من أيام حياتهم التي صارت تشبه بعضها البعض. فقد بات همهم الأول نصب الخيام عند أوّل الليل، ثم النهوض في الصباح التالي لتفكيكها قصد مواصلة الرحيل.

وما هي إلا ساعة من الزمان حتى انضم إليهم آخرون. انضمت امرأة تبدو عليها علامات التعاسة، وشيخ بادي الضجر، وطفل مر بالقرب منهم فأصابته رغم حداثة سنه عدوى التذمر. شكّل هؤلاء جميعا جوقة رفعت عقيرتها بالشكوى وأجهشت بالرثاء: «لماذا أُخرجنا من مصر؟ ألم نكن سعداء هناك؟ ألم نكن ننعم بكل ما تشتهيه أنفسنا؟» كما أضاف آخرون بمكر «ربما أخرجنا موسى إلى هذه الصحراء لأن العيش فيها يروق له. أولم يقض فيها أربعين سنة قبل أن يعود ويأتي بنا معه؟ لقد فعل منكرا إذ استقدمنا إلى هذا المكان الذي كرهته أنفسنا.«هكذا تسارعت وتيرة تذمرهم، وتصاعد صياحهم، فيما جعل الناس ينضمون إليهم أكثر فأكثر حتى تحولوا إلى حشد كبير يعزف بحماسة على نفس الوتر النشاز، مشجعين بعضهم البعض على ذكر السلبيات إثر السلبيات. ولم يتذكر أحد منهم كأس العبودية التي طالما تجرعوها بمرارة في مصر. كما لم يتذكروا آيات الرب التي أجراها أمامهم.

فجأة علت صرخة ألم وسط الحشد، فتوقف سليمان وزملاؤه عن الكلام، وران صمت مريب على الجميع لم يكسره سوى رجل صاح: «انتبهوا الأفاعي! مئات الأفاعي السامة «وللتو سقطت امرأة شابة تتلوى من الألم بعد أن لدغتها حية، ثم سقط رجل مسن، ثم آخر، ثم آخر. فأصاب الناس رعب شديد وطفقوا يتدافعون فيما بينهم بضراوة محاولين الهرب من الحيات الزاحفة من كل الجهات. وما لبثت المرأة الشابَّة أن ماتت متأثرة بالسم الزعاف الذي لم يمهلها كثيراً، وكذلك الرجل المسن الذي حول السم بشرته إلى لون الرماد. وخلال فترة قصيرة كانت الأفاعي قد قتلت خمسة وعشرين شخصا.

أقبل البعض ممن كانوا ضمن الحشد على موسى. واعترفوا بذنبهم شاهدين على أنفسهم بالخطأ عندما تذمروا على الله ونبيه الكريم. ثم استعطفوا موسى بإلحاح أن يبتهل إلى الله كي يرفع عنهم أذى الحيَّات السامَّة. فلمس موسى في إلحاحهم الشديد ذلك صدقاً وحسن توبة. فدخل خيمة الرب وصلى لأجلهم أن يخلصهم تعالى من أذى الحيات.

في نفس الآن لاذ سليمان بخيمته بعد أن فتش كل أرجائها بدقة للتأكد من عدم وجود حيَّة تختفي هنا أو هناك، بينما كانت ترتفع في الخارج صرخات الملدوغين وأنَّات المحتضرين. ثم أجاب الرب موسى أنه لن يخلص الشعب من الحيَّات بل سيوفر لهم سبب شفاء. فأمره أن يضع حَيَّةً من النحاس ويعلقها على عمود مرتفع ثم يقيم العمود وسط المخيم حتى يتمكن الجميع من النظر إليه. وأخبره أن كل من لدغته حية منذ ذلك الوقت، ونظر إلى حية النحاس يحيا. ففعل موسى ما أمر به الرب.

أما سليمان فقد مر الليل عليه بطيئا جدا، فيما سهر أحد أفراد أسرته يحرس الخيمة. فقد اتفقت الأسرة أن يتناوب أفرادها على الحراسة كل ليلة حتى لا تَتَسلل إلى الخيمة إحدى الحيات. لكن في الصباح كان على أحدهم أن يخرج إلى الحقل كي يجمع المن. وإذ جاء دور سليمان للخروج، تسلل في حذر بين الخيام حتى بلغ الحقول. فرأى البعض يدفنون موتاهم لأن الحيات لدغت العديدين خلال الليل. ووقف البعض يتحدثون عن حيَّة النحاس التي صنعها موسى ووضعها وسط المخيم زاعما أن كل من لدغته حية ونظر إليها يشفى. ولم تخل تلك الأحاديث عن حية النحاس من مستخف مستهزئ بنجاحها وجدواها، إذ كان من الناس من لم يصدق في قرارة نفسه قول موسى.

بعد أن انتهى سليمان من ملء سلته بالمن، قفل عائدا إلى المخيم. وعندما اقترب من خيمة أهله توقف فجأة ليسلم على أحد أصدقائه. وفي تلك اللحظة بالذات، وبأسرع من لمح البصر قفزت حية ولدغته في قدمه. فأحس وخزة ألم حادة جعلته يصرخ بقوة ويقفز وسط الخيمة. هنالك رمى سلة المن وسقط متهالكا على الأرض، فأسرع أخوه بوعاز لنجدته حين سمع الصراخ وصاح به «سليمان! سليمان! سأحملك إلى وسط المخيم كي تنظر إلى حَيَّة النحاس».

لكن سليمان زعق وسط ألمه بحدة: «ما نفع ذلك؟ ما علاقة حية نحاس بلدغة حية حقيقية؟» فألح عليه أخوه بتصديق الأمر، مخبرا إيَّاه عن أحد جيرانهم الذي لدغته حية في حقل المن، لكن سرعان ما شفي عندما حملوه إلى وسط المخيم ونظر إلى حيَّة النحاس.

لم يقتنع سليمان بقول أخيه، إذ بدت نفسه الضعيفة متأثرة بما سمعه من أحاديث تستخف بقدرة الحية النحاسية على الشفاء. فاستمر في انشغاله بالألم الحاد الذي لم يفتأ يشتد ويسري عبر رجله شيئا فشيئا. وإذ بلغ مستوى الركبة أحس بدوار شديد، وبالعرق يتصبب من وجهه وكامل جسمه زخات رخات ويبلل ملابسه.

فلم يستطع بوعاز الصبر والانتظار أكثر. فأخذ بسرعة ذراع أخيه وجعلها على كتفيه، ثم أحاط خصره بذراعه هو، وخرج يجره رغما عن أنفه إلى وسط المخيم، فيما أسرع آخرون لمساعدته. وعندما بلغوا مكان العمود، طرحوه أرضا أمامه. هنالك تزايد شعور سليمان بالوهن والضعف، حيث أصبح جسده ينبض ألما بكامله. في نفس الوقت لم يدخر أخوه بوعاز جهدا في حثه على النظر إلى الحية: «انظر إلى حية النحاس لكي تحيا! انظر إلى حية النحاس لكي تحيا!»

ومن عجب أن سليمان ظل سادرا في رفضه النظر، حتى إذا بلغ منه الألم مبلغا لا يطاق رمى بكل المنطق البشري عرض الحائط، وصدق وعد الله لموسى «كل من يلدغ وينظر إلى حية النحاس يحيا «وببطء وجهد كبيرين رفع رأسه ثم عينيه، ونظر من خلال الدموع والعرق المتصبب إلى حيَّة النحاس، وما لبث أن سقط مغشيا عليه من شدة التعب والألم.

بعد ساعات معدودات استفاق سليمان على فراشه وسط الخيمة واستغرب من عدم شعوره بأي ألم. بينما أحاط به أفراد أسرته الذين كادوا يطيرون فرحا عندما فتح عينيه. ثم استوى سليمان في جلسته وهمس «يا لمجد الرب وقوته. أترون! كانت نظرة واحدة، نظرة قصيرة خاطفة تكفي لكي أحيا. نعم أحيا أنا الذي طالما عميت في الطغيان والضلال».

لقد استفاد الشعب ثلاثة أمور من هذا الحدث. أولها أن الله وحده الكفيل بتدبير سبل خلاصه لنا من الموت . وعلينا نحن أتباع هذه السبل سواء بدت لنا معقولة أم لا. ثانيا أن كل تذمر مهما قَلَّ شأنه هو تذمر على الله تعالى. ثالثا أن وعود الله حق مهما بدت لنا خارج حدود المنطق البشري الذي لا حول له ولا قوة مهما بلغ.

# الشيطان المتنكر

اشتد المرض على الفتاة الصغيرة. فعملت أمها كل ما في وسعها كي تخفف عنها. لكن دون جدوى. كانت الحمى تتقد مثل أتون مشتعل، ولا تزيد يوماً عن يوم إلاّ اتقاداً داخل جسد الطفلة التي بات لسان حالها يحاكي ما قاله الشاعر أبو الطيب المتنبي في معاناته من حمى شديدة:

يضيق الجلد عن نفسي وعنها
فتوسِعه بأنواع السقام
كأنَ الصبحَ يطردها فتجري
مدامعها بأربعة سجام

ولم يكن بإمكان المرأة عرض ابنتها على أحد حكماء مصر، فأين هي الآن منهم؟ كما أن صلواتها للرب لم تأت بطائل (أو هكذا على الأقل خُيِّلَ لها) فاستبدت بها الحيرة طويلا إلى أن هداها بعضهم إلى إحدى قبائل البدو التي كانت تعيش على الجانب الآخر من التلة. فقررت الذهاب إلى هناك لتبحث عن أحد يستطيع شفاء ابنتها.

سارت المرأة تجر خطواتها بجهد وسط الصحراء، وقد حملت البنت المريضة بين ذراعيها، فيما بدت حرارة الجو المرتفعة أقل وطأة من حرارة الحمى التي باتت تلفح لفحا من جسد الطفلة. ثم عرجت على الطريق النازل نحو مخيم القبيلة، متسائلة عما إذا كان هناك أحد يستطيع تخليص فلذة كبدها مما هي فيه.

وإذ دخلت القبيلة دَلَّها الناس على خيمة حكيمهم الشيخ. فوجدته قائما يحرق البخور ويردد التعاويذ على جسد شاب مريض، وقد ارتدى ثيابا خاصة بتلك المناسبة.

فلاحظت للتو تحسن حالة الشاب المريض الذي بدا على ما يرام وهو يخطو خارج الخيمة. ثم اتجه الشيخ إلى الفتاة الصغيرة، وحملها بين يديه، وطفق يردد عليها بعض التعاويذ. ثم نطق ببضع كلمات. ونفخ في أذنيها وأنفها. وفي الأخير أعطى الأم بعض الأعشاب، وأمرها أن تغليها على شكل شراب وتناوله ابنتها. ففقلت عائدة وقد أحست ببعض الاطمئنان.

ومثلما أشار الشيخ أعطت ابنتها شراب الأعشاب، فلاحظت تحسن حالتها. وما هي إلاّ أيام معدودة حتى شفيت تماما وخرجت تركض وتلعب مع لداتها حول المخيم. فتضاعف شعور الأم بالراحة.

مضت حوالي خمس عشرة سنة على ذلك الحدث، وتزوجت البنت شابا أحبها وأحبته، وعاشا سعيدين معا. لكنهما لم يرزقا أبناء رغم طول انتظارهما بشائر حمل قريب. فحزنت الزوجة الشابة وأخبرت أمها التي صلت كثيرا من أجلها للرب وأمرتها أن تواظب على الصلاة هي كذلك. لكن دون جدوى (أو هكذا على الأقل خيل إليهما) عندئذ فكرت الأم في سبل أخرى تحاول بها مساعدة ابنتها على الحمل. ومرة أخرى أرشدها بعضهم إلى إحدى قبائل البدو حيث شيخ يستطيع شفاء جميع العلل بما في ذلك العقم. فصاحبت ابنتها إليه. وهناك مارس الشيخ نفس الطقوس المعهودة: البخور والتعاويذ والأعشاب. فتخلصت الزوجة بالفعل من عقمها، وحملت، ووضعت طفلا جميلا.

لكن بعد الولادة بقليل بدأت الزوجة الشابة تستيقظ فجأة في الليل مستشعرة خوفا رهيبا وكآبة عظيمة. وأحيانا تستيقظ وحنجرتها تكاد تنفجر من الصراخ. فانتاب الزوج قلق كبير بشأنها. وإذ كان رجلا مؤمنا، قرر عرض الأمر على أحد رجال الدين ليسأله المشورة. فاستدعى هذا الأخير الزوجة الشابة وأمها وتجاذب معهما أطراف الحديث. واكتشف أنهما زارا شيوخ البدو الوثنيين مرتين على الأقل، والتمسا منهم المساعدة.

ثم بدأ رجل الدين يشرح للمرأة وابنتها مدى مقت الرب وكراهيته الشديدة لكافّة الممارسات السحرية والشيطانية، لأنه تعالى قدوس مقتدر لا يحتمل أن يلتمس عباده العون من قوة سواه. فهو سبحانه لا يقبل أن يمارس أحد طقوس العرافة أو السحر أو التطيُّر أو استحضار الأرواح أو أي شكل من أشكال الرجم بالغيب أو الشعوذة. فماذا يحدث عندما نقوم بمثل هذه الممارسات؟ يحدث أن الله يرفع عنا حمايته فتبقى عرضة لهجمات الشيطان وقبيله. أما حالات الشفاء التي اختبرتها المرأة فهي حالات ظرفية تكون عادة فخاخاً يزيد بها الشيطان تمكنا من نفوس ضحاياه. والشيطان اللعين نفسه لا حول ولاقوه له إلاّ في حدود ما يتيحه الله له.

لكن المرأة أجابت رجلَ الدين محتجَّةً أن تدخل الشيخ الوثني كان مصدر راحة لها ولابنتها مرتين، فلماذا لا يكون ذلك علامة على أن قوة الربّ كانت معه، وأنه هو نفسه رجل صالح. فشرح لها أن ذلك من ألاعيب الشيطان وخدعه الكثيرة لإيهام البعض أنه يعمل لصالحهم. لكنه في النهاية لا يتركهم حتى يدمر حياتهم تدميراً. إذ الأمر شبيه جداً بالعملة الزائفة التي تبدو صالحة للتداول، لكنها تكون في النهاية مصدر خيبة لصاحبها، وقد تقوده إلى السجن.

كما شرح لها أن استشارة محضري الأرواح ومن يحذُو حذوهم هو التماس للعون من قوى أخرى غريبة دون الخالق. لكن الأمر يختلف جِداً عندما نزور الطبيب الذي يعتمد على المهارة الشخصية التي وهبها الله له، والمعرفة الطبية المتوفرة له، وكذا الخصائص الشافية الموجودة بقدرة الله في الأعشاب. إنه بخلاف الساحر والعراف وأمثالهما يعالج الأمراض العضوية دون اللجوء إلى أية قوى سحرية أو ما ورائية. أو غير ذلك من أشكال الممارسات التي تعتبر بحق ممارسات وثنية.

اقتنعت الأم وابنتها بالخطأ الذي ارتكباه، ثم أخذتا تصليان بحرارة التماساً للغفران عما بدر منهما في حقه تعالى. وكانت توبتهما نصوحاً، إذ لم يحدث خلال ما تبقى من حياتهما أن عادتا إلى أي من تلك الممارسات الوثنية المشينة.

في تلك الليلة ولأول مرة منذ زمن طويل نعمت الزوجة الشابَّة بنوم هنيء شكرت الله كثيرا عليه وعلى الهداية التي أفاء بها سبحانه عليها، لأنّه هو الرحيم الذي يفيء برحمته على من يشاء من عباده.

# حكاية مَلِكين

دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة مثلما وعدهم الله، وحدثت هنالك بينهم صراعات واضطرابات كثيرة. وقد غَوى عدد كبير منهم، وحادوا عن سبيله السوي، وعبدوا آلهة صنعتها أيديهم من الذهب والفضة. وتولى قيادتهم على مدى فترة طويلة أشخاص عرفُوا «بالقضاة «كان البعض منهم أنبياء.

ثم كان يوم طالبوا فيه بتنصيب ملك عليهم أسوة بالأمم الأخرَى. لقد كان ذلك الطلب في حد ذاته إساءَةً مبطَّنة للرب الذي أنجز كل وعوده أمام أعينهم. فهو من حيث المبدأ رفض غير مباشر لسلطة الله العملية على حياتهم اليومية، لأنه تعالى كان الملك الوحيد عليهم منذ خروجهم من مصر.

وكان بينهم في ذلك الزمن نبي كريم يدعى صموئيل. فأمره الله أن يمسح بالزيت رجلا من سبط بنيامين يدعى طالوت (شاول) ليصبح ملكا مُنَصَّباً على بني إسرائيل. فاستدعى صموئيل كل الشعب وشرح لهم واجبات المَلِك وحقوقه، ثم نصب عليهم طالوت. وحث هذا الأخير أن يحكم ويعيش حسب وصايا الرب. وقد كانت عمليةُ مسح رأس طالوت بالزيت علامة ترمز إلى أن الله انتخبه من بين كل الشعب لخدمته سواء في حياته الشخصية أو في ممارسته للحكم.

كان طالوت قبل ذلك رجلا طيّباً لم تراوده يوما ما فكرة أن يصبح ملكاً، ولا هو سَعَى بشكل من الأشكال إلى ذلك. فقد اختبأ يوم تنصيبه بين الأمتعة تفاديا لتلك الأمانة، لولا أن بحثوا عنه وأحضروه من هناك. كما أن طول قامته وقوة جسمه استرعت انتباه صموئيل وسائر أفراد الشعب. فقاد طالوت بني إسرائيل في معارك عديدة، وأنقذهم من أعدائهم المحيطين بهم، واستحق بذلك احترام الشعب وولاءه له.

لكن الأشياء بدأت تسوء بالنسبة له، إذ لم يعد الرب موضع ثقته المطلقة. فاستبد به الغرور وأصبح يعتمد في الكثير من أموره على نفسه. بدأ الأمر أول ما بدأ حين تأخر النبي صموئيل يوماً عن الحضور لتقريب ذبائح الرب قبل بداية إحدى المعارك. فقلق طالوت، واستبدت به العجلة، خصوصا حين رأى الجيش يتفرق عنه. إلاّ أنه لو كان وثق في الرب لما أعار اهتماما لعدد محاربيه، إذ كم فئة قليلة غلبت بعون الله فئة كبيرة. هكذا قرب بنفسه الذبائح التي لا يستطيع سوى نبي تقديمها.

فكان ذلك إهانة واستخفافا واضحا بمشيئة الله من جهة، واغتراراً بقدرة تفكيره وقوته البشرية من جهة أخرى. وكان ذلك بداية غضب الرب عليه.

وذات يوم حدثت معركة أخرى، تواجه فيها الإسرائيليون مع جيش يتقدم صفوفه محارب عملاق اسمه جالوت (جُليات) كان يتحدى بني إسرائيل أن ينتخبوا من صفوفهم رجلا يبارزه، حيث هزيمة أحد المبارزين تقتضي هزيمة الجيش الذي ينتمي إليه. فلم يستطع أحد بين الإسرائيليين تحريك أي ساكن أمام ذلك الجبار الذي استمر في إرباك صفوفهم الصامته بتحديه.

فجأة ظهر من بين صفوف الإسرائيليين شاب صغير السن يدعى داود كان من أمهر رمَاة المقلاع. تقدم متطوعا لمحاربة جالوت لأن تحديات هذا الأخير الشائنة استثارته كثيراً، ولأن سُكوت بني إسرائيل على إهاناته المتكررة أثار استغرابه. فمنحه طالوت سترته الحربية ليلبسها لكنه رفض، وسار بين الصفوف المتواجهة حاملا فقط عصاه ومقلاعه. لكن في طريقه إلى العملاق توقَّف عند جدول الوادي والتقط خمس حجرات ملساء.

فاحتدم غضب جالوت لمرآه، لأنه كان محاربا ذا بأس وبطش شديدين. لذلك اندهش وهو يرى شابا صغير السن يقترب منه حاملا عصا يبدو أنه يستعملها للهش على غنمه. فاعتبر ذلك إهانة لشرفه بين المحاربين وقال لداود: «ألعلّي كلب حتى تأتي لمحاربتي بعصي... تعال لأجْعل لحمك طعاماً لطيور السماء ووحوش البرِّيَّة «وشتم أيضا آلهة داود. لم يعبأ العملاق لشدة غروره حتى بالانتباه إلى المقلاع الذي كان داود يمسكه. فأجابه هذا الأخيرُ قائلا: «أنت تبارزني بسيف ورمح وترس، أما أنا فآتيك باسم رب الجنود إله جيش إسرائيل الذي تحدَّيْته...ستدرك كل الجموع المحتشدة هنا أنه ليس بسيف ولا برمح يخلّص الرب، لأن الحرب حربه وهو ينصرنا عليكم« .

كان داود يمتلك سلاحا خفيًّا لم يكن هو المقلاع الذي لم يتنَبه إليه جالوت، ولا العصا التي شاهدها. بل قوة الرب وقدرته. فهو لم يتقدم نحو الطاغية معتمداً على قوته أو سلاحه أو مهارته، بل واضعا ثقته في تدبير الرب.

وضع داود حجراً في المقلاع ولوح به نحو جالوت فهشم جبهته. تقول التوراة الشريفة أن الحجر «غاص في جبهته فسقط على وجهه إلى الأرض «ثم أخذ داود سيف الطاغية وقطع به رأسه، وما إن رأى الأعداء ذلك حتى فروا هاربينَ، فتعقبهم الإسرائيليون في كل اتجاه.

عظم ذكر داود بعد ذلك بين الشعب بسبب ما فعل، فاحترق قلب طالوت غيرةً، لأنه أدرك أن بركة الرب قد حلت على داود، بينما ارتفعت هو عنه. فحاول مرارا إيذاءه، وأطلق عليه جنوده كي يتعقبوه وسط الصحراء ويقتلوه. لكن الرب كان دائما يخلصه. ولقد سمحت الفرصة مراراً لداود كي يقتل طالوت لكنه كان في كل مرّة يأبى ذلك. لأنه لم يكن يريد إزاحة طالوت عن كرسي الملك اعتمادا على قوته. بل فضل أن ينتظر حكم الرب في ذلك. فجرى حكمه سبحانه أن يموت طالوت في إحدى المعارك ويخلفه داود. فحكم هذا الأخير الشعب حسب وصاياه تعالى، جاعلا كامل اعتماده عليه. إلا أنه لم ينجُ هو أيضا من ارتكاب الخطايا، حيث زنى مرة، وقتل نفساً بغير حق، وأحْصَى الجيش، مما يدل على أنه بدأ يستمرئ السلطة ويضع ثقته في قوة عساكره. لكنه كان كلما أخطأ وواجهه رجال الله بخطئه يخر إلى الأرض صاغرا، متوجعا، متخشعا، طالبا التوبة من الرب، راضيا بحكمه أيا كان فيه.

كان داود يحب الرب كثيرا حتى أنه ألف العديد من المزامير تمجيداً له، وكان قلبه دائم التوق إليه، لأنه كان يعتبر محبته تعالى أسمى وأجل من الحياة نفسها. كما كان يعتبر بركاته أغلى من كل ذهب الدنيا وجاهها. لذلك أحب الله أيضاً داود وأثابه.
ولم يحدث أن اغتر طيلة أيام حكمه بمظاهر قوته سواء الشخصية أو العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية. بل كان مواظبا على التواضع لله والتماس هداه وقوته وحكمته.

لقد كان طالوت وداود يرمزان إلى مملكتين مختلفتين: أحداهما اعتمدت على مظاهر قوتها، وادعت أنها ترضي الله بفعلها، بينما هي في الحقيقة تسعى إلى بناء مجدها الدنيوي. أما الأخرى فأدركت قصورها في بلوغ مرضات الله، واعترفت بخطاياها وسلمت أمرها له، جاعلة كامل معتمدها عليه.

# خطيئة داود

أحب داود الرب من كل قلبه، ورغب بحق في طاعته وإتباع نهجه القويم. لكنه كان بشرا ينطبق عليه الضعف كسائر البشر. فقد احتوى في داخله نفس الطبيعة الخطّاءة التي أودت بآدم وأخرجته من الفردوس. لذلك لم يتورع عن ارتكاب الخطيئة رغم كونه نبياً. وكان قد اعتاد كملك قيادة الشعب للحرب بنفسه، غيرَ أنه ذات ربيع قرر عدم الخروج والمكوث في مدينة القدس.

ربما فعل ذلك لأنه أحب أن ينعم بالراحة قليلا، أو لأن مظاهر العظمة بدأت تداعب مشاعر الغرور في نفسه، أو لسبب آخر . المهم أنه تخلف في ذلك الربيع عن الحرب وأرسل قائدا ينوب عنه على رأس الجيش. وهي حالة عبر عنها ابن خلدون قروناً بعد ذلك في معرض تفسيره لطبيعة المُلْك$ حين قال في مقدمته الشهيرة: «فإذا حصل المُلْك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ويُجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب».

وفي إحدى الأماسي الجميلة، بينما هو يتمشى على سطح القصر، مستمتعا بهواء الربيع المعتدل العليل، وبمنظر الشمس المائلة للغروب، شاهد ما لم يكن ينبغي أن يشاهده. فقدْ وقعت عيناه على امرأة عارية تستحم فوق سطح دارها. وللتو ذهب جمالها الأخاذ بلبه وحرك مكامن الشهوة والضعف فيه.

كان اسم المرأة بثشبع وكانت زوجة أوريا الحثي أحد جنوده. لكننا حين نتأمل المشهد جَيِّداً نرى أمامنا شخصين موجودين في غير مكانهما المناسب. فلم تكن مدينة القدس المكان المناسب لوجود

داود في ذلك الوقت من السنة، بل كان المكان المناسب لوجوده هو ميدان الحرب بجانب قواته. أما بتشبع فلم يكن ينبغي لها أن تستحم على السطح كاشفة مفاتنها ،دون مراعاة لكرامة الجيران أو مبالاة بعيون الفضوليين.

عندما رأى داود بتشبع لم يستطع صبراً عليها. فأرسل في طلبها إلى القصر ولبت هي الدعوة. مرة أخرى لم يكن ينبغي له أن يستدعيها إليه، كما لم يكن ينبغي لها أن تلبي دعوته في غياب زوجها. وحين دخلت القصر أخذها ضاجعها. ولم تمر سوى فترة قصيرة حتى أرسلت إليه تبلغه بكونها حامل منه.

فخاف داود من انكشاف أمره بين الناس، وفعل كل ما في وسعه كي يتجنب عار الفضيحة. لذلك أرسل في طلب أوريا الحثي زوج بتشبع من ميدان الحرب إلى مدينة القدس. وبعد أن استفسره عن أنباء الجيش والحرب سمح له بالذهاب إلى بيته.

لكن أوريا بسبب نبله لم يتوجه إلى هناك، حيث لم ير أن من اللياقة الاستمتاع بالنوم تحت سقف بيته ومضاجعة زوجته بينما جيش الله يخيم في العراء. فقضى ليلته مع حرس القصر، وأثبت بذلك أنه أنبل من داود.

وحين سمع داود بذلك طلب منه أن يمكث يوما آخر في مدينة القدس، ويكون ضيفه على المائدة الملكية. وهناك جعل يعطيه الخمر حتى سكر وطلب منه الذهاب إلى بيته. لكن أوريا رغم سكره الشديد قضى ليلته الثانية مع حرس القصر.

فاشتدت حيرة داود الذي لم يجد وسيلة للتخلص من عار الفضيحة التي توشك أن تنفجر. عندئذ هداه فكره الخاطئ إلى الوسيلة الوحيدة التي بقيت أمامه، وهي قتل أوريا بأسرع وقت ممكن، والزواج من أرملته بتشبع. فكتب رسالة إلى قائد جيشه يطلب منه وضع أوريا في مقدمة خطوط الحرب ثم التراجع بالجنود من ورائه لكي يلقى حتفه. وبعث الرسالة مع أوريا نفسه.

فسارت الأمور كما خطط لها داود. ولم يَمض وقت طويل حتى وصل نبأ موت أوريا، فتزوج داود بتشبع بعد انتهاء فترة حدادها. إلاّ أنّ الأمر الذي خفي على الكثير من الناس لم يكن ليخفي على الرب الذي لم يكن يعني له خوف البشر من العار أو الفضيحة شيئاً. فهو تعالى العالم بكل شيء، الذي لم تكن تغرب عن باله صغيرة ولا كبيرة. ولم يكن يسوؤه سوى إقدام البشر على ارتكاب المعصية. لذلك أخَذَ داود بمعصيته وقرر أن يحاسبه.

فأرسل النبي ناثان لكي ينبهه بأسلوب طريف إلى ما اقترفه. فأخبره عن رجل غني سطا على النعجة الوحيدة التي يملكها أحد جيرانه الفقراء ليطعمها أصحابه الذين نزلوا ضيوفاً عليه، بدل أن يذبح لهم خروفاً من قطعانه الكثيرة التي يملكها. فاحتدم غضب داود وقال: «إن الجاني يستوجب الموت !«وأضاف أيضا أن على الغني أن يمنح جاره الفقير أربعة خرفان تعويضاً عن نعجته. وإذ كان ناثان نبيا شجَاعا يخاف الرب أكثر من داود أو أي شخص آخر بادره قائلا: «أنت هو الرجل «ثم ذكره بما فعله الله من أجله حين ولاه على بني إسرائيل بعد أن كان راعي غنم فقط. وواجهه بجحوده لكل تلك النعم إذ عصى الله، واقترف الشر أمامه، واحتقر اسمه أمام أعين أعدائه. ولأنه قتل أوريا

بسيف الأعداء حكم الله بأن لا يبارح السيف بيته إلى الأبد. ثم أخبره أنه إذا كان هو ارتكب خطيئته في السر، فسينزل ما سينزل به على مرأى من الشعب.

وكان رد فعل داود مثلما أراد الله أن يكون: فقال لناثان «لقد أخطأت إلى الرب.» لم يحاول أن يُداري خطيئته، ويختبئ وراء مظاهر عظمة ملكه، ولا أن يبرر فعلته بأن يرمي اللوم مثلا على بثشبع ويجعلها مسئولة على غوايته. بل قال بصدق وبساطة «قد أخطأت».

ولأن توبته كانت صادقة نصوحا كما أحب الرب، غفر له تعالى خطئيته، على أن ينال عقابه الذي يستحق. ومعنى ذلك أن الله أعفاه من نتيجة خطيئته التي هي موت روحه إلى الأبد، لكن فرض عليه تحمل عواقب تلك الخطيئة طيلة حياته. فضرب بالمرض الطفل الذي ولده من بثشبع. ولأنّ داود كان يعلم سعة رحمة الرب ابتهل إليه كثيراً كي يحفظ حياة المولود البريء. وواظب على الصيام والصلاة من أجله. لكنه تعالى لم يقبل كل ذلك منه فمات الطفل بعد أسبوع فقط من ولادته، وبقي لسان حال داود يحكي ما قاله الشاعر ابن الرومي بلوعة في رثاء ابنه الصغير:

عجبتُ لقلبي كيف لم ينفطر له
ولو أنه أقسى من الحجر الصلدِ
بودّي أني كنت قُدِّمتُ قبله
وأن المنايا دونه صمدت صمدي

قد يوجد بعض من يحسب أن موت أحد أبنائه أهون من أن يحل عليه هو الهلاك. وشخص مثل هذا إن وُجد هو شخص حل عليه غضب الله بأن قسي قلبه وجعله كالحجارة أو أشد قسوة. لكن الآباء والأمهات لا يفارقهم عادة الحزن طيلة أيام حياتهم على كل فلذة كبد لهم يختطفها الموت. لذلك جعل الله موت رضيع بثشبع تذكارا لا يفارق ذاكرة داود وعبرة يعتبر بها طول حياته. وقد ألف داود بالفعل مزمورا رائعا يذكر فيه خطيئته تلك ويلتمس من الله الغفران.

# التوبة النصوح

(الحكاية التالية إطار سردي لشرح إحدى حقائق الكتاب)

جلس الملك متفكرا بهدوء في الرسالة التي حملها له النبي ناثان من قبل الرب. لقد أدرك الآن فداحة ما اقترفه من خطايا، إذ زنى وقتل. وهما خطيئتان ثقيلتان ذوتا عواقب وخيمة جدّاً. كما أدرك هول إساءته للرب العلي القدوس. لكن راحته كانت عظيمة عندما سمع من فم ناثان بأن الرب قد غفر له خطاياه، وأن روحه لن تموت.

عندئذ بدأ يؤلف صلاة توبة تعبيرا عما كان يخالجه من مشاعر في تلك اللحظة. فأخذ القلم وكتب: «ارحمني يا أله حسب محبتك الثابتة، وامح معاصيَّ حسب كثرة رأفتك.»فقد كان يعرف أن وجوده رهين برحمة الرب، وأنه لن ينال الغفران إلا بِحَسَب$ محبة الله العظيمة التي لا يُسبر لها غور. إذ ماذا باستطاعته أن يفعل كي يكفر عما ارتكبه من زناً وقتل؟ وأية كفارة تستطيع محو خطاياهُ تلك؟ ثم إن قداسة الله مطلقة لا يستطيع حتى الذي يظن نفسه الأطهر بين البشر أن يتبجح بخلو حياته من الخطايا أمام نورها الباهر. لذلك وحدها رحمة الرب قادرة على ضمان المغفرة لبني البشر.

ثم واصل الكتابة: «اغسلني كليا من إثمي، وطهرني من خطيئتي، فإنني أقر بمعاصِيَّ، وخطيئتي ماثلة أمامي دائما «فهو لم يجد مهربا من الإحساس بعمق خطيئته، وضميره ما فتئ يؤنبه ويؤرق راحته، لأن الرب وحده القادر بفضل محبته اللا متناهية على تطهيره من وصمة الإثم وتحريره من نير الذنب الذي ارتكبه. لقد أدرك ما اقترفه من معاص$ وخطايا باتت واضحة كالشمس أمام ناظريه، حتى أن التفكير فيها لم يعد يكاد يبارح ذهنه، لأنه كلما حاول نسيانها قفزت بعناد أمامه.

لمس بقلمه القرطاس، ففاضت من جديد قريحته: «إليك وحدك أخطأت، والشر قدام عينيك صنعت. لكي تتبرر إذا حكمت، وتزكو إذا قضيت.»صار واضحا أمامه أن كل خطيئة هي في النهاية إساءة للرب، فلم يعد يرى من معنى لذلك الخوف البشري المريع من الفضيحة ما دامت الخطيئة منكشفة أمام الله الذي تمت في الحقيقة الإساءة إليه. نعم إن أوريا هو الذي مات، لكن الرب هو الذي أسيء إليه. فأين يا ترى يخبئ وجهه منه تعالى؟ وما همه إن عرف الناس بذنبه أم لم يعرفوا؟ كما أن كل فعل صغير أو كبير مهّد لذلك الزنا والقتل، من كذب وشبق وغرور وأنانية هو خطيئة في حق الرَّبّ.

أدرك الملك عندئذ أن مصدر كل خطيئة هو طبيعة الإنسان الشريرة فكتب: «ها إنِّي بالإثم قد ولدت. وفي الخطيئة حبلت بي أمِّي.»لقد فهم أن الأمر لا يتعلق فقط ببضع أفعال ارتكبها، بل بكامل الطبيعة البشرية التي جبلت على الشر في مواجهة قداسة الله الحي. فمنذ حبلت به أمه وهو قائم في الخطيئة، طاعن في عصيان الخالق والتمرد عليه.

لكن ما هي يا ترى رغبة الرب حتى يحاول جهده تحقيقها؟ كان يعرف أن المسؤولية التي قلده الله أمانتها أكبر من مجرد توبة عادية. فما هي رغبة الرب؟ أخذ داود القلم وكتب: «ها أنت ترغب أن ترى الحق في دخيلة الإنسان «لقد تذكر فجأة الخداع الذي طالما مارسه، حيث احتال على أوريا وتظاهر بكونه صديقه بينما كان في الحقيقة يكن له كل العداء. كما أنه المسئول الوحيد على قتله رغم أنه قتل بيد قوم آخرين. فكان على داود الإقرار بكل ذلك في دخيلة نفسه والكف منذ ذلك الوقت عن التظاهر بالباطل.

بدأ يفكر مليا في السبيل إلى ذلك، ثم بعد فترة اهتدى إلى الحل: «أنت تُعرّفني الحكمة في قرارة نفسي.»فقد كان حقا بحاجة إلى تلك الحكمة لأنه أدرك أن مخافة الرب هي أول خطوة في طريقها.

ثم طفق يصلي ملتمسا من الرب غفران خطاياه: «طهرني بالزوفا فأتنقى. اغسلني فأبيضَّ أكثر من الثلج.»كان يطلب من الله أن يريحه من الشعور بالإثم الذي لم يبارح ذهنه لحظة. كما كان يرجو ضميراً نقياً وسريرة صافية تمكنانه من النوم ليلا. لكنه فكر لبرهة أن المغفرة وحدها لا تكفي، وأنه

في الحقيقة يرغب في أكثر من ذلك فكتب: «اسمعني صوت السرور والفرح، فتبتهج عظامي التي سحقتها ".

لكن كيف للعلاقة مع الرب أن تتجدد بعد أن أشاح عنه تعالى بسبب خطيئته؟ كان يعرف أن الرب يريده أن يبتعد عن الشر لأن قداسته المطلقة لا تحتمل شائبة واحدة، فواصل صلاته: «احجب وجهك عن خطاياي، وامح كل آثامي «لكنه انتبه فجأة إلى أنه لا يصارع الماضي وخطاياه وحسب، بل الحاضر والمستقبل أيضا. إذ أنّى له الكفَّ عن ارتكاب الخطيئة؟ أنّى له فهم طبيعته البشرية التي جُبلت على الشر منذ الولادة.

تصاعد الأنين في داخله وهو يفكر في كل هذا. وانتظر أن يلهمه الله طلبةً يصلي بها كي تتكشف له الحقيقة. فاستجاب له وألهمه مايَلي: «قلبا نقيا اخلق فِيَّ يا أله، وروحا مستقيما جدد في داخلي.«هو ذاك ! قلب نقي جديد لا يلين للخطيئة بل يكون هدفه رضا الله تعالى والمواظبة على طاعته. وكان داود يعرف أن الله هو القادر وحده على منحه قلبا بذلك النقاء والجدة، ولا قدرة لمخلوق على تحقيق ذلك مهما حاول.

فدفعته رغبته الشديدة في تجديد علاقته بالرب أن يواصل الصلاة قائلا: «لا تطردني من حضرتك، ولا تنزع مِنِّي روحك القدوس «لأن الروح القدوس هو ضمانته الوحيدة لاستمراره قائما في حضرة الله. لذلك حرص على ألاَّ يفارقه. كما بدا واضحا أن الله أحب داود، لأنه لو لم يحبه ما حاسبه وأدبَّه كما فَعَل.

وقد تحقق داود من ذلك الحب فكان مصدر فرح كبير له، إذْ تشهد التوراة الشريفة أن داود لم تكن تفرحه مكانته ولا قوته ولا غناه بقدر ما كانت تفرحه محبة الله له. فعبر عن ذلك بطلبة أخيرة: «رد لي بهجتي بخلاصك، وبروح رضية آزرني «فقد كان يريد أن يخلص لله ويعيش في كنفه، ليس خوفا أو خشيةً، بل لأجل الفرح الذي يستشعره في طاعته.

طوى داود القرطاس الذي كان يكتب فيه وهب واقفا. لقد اعترف بخطيئته، وأدرك أن عليه حسابا لابد أن يوفيه حتى الفلس الأخير. لكنه روحه كانت تطفح بهجة بسبب علاقته المتجددة مع الرب.

# الخلاص القادم

(الحكاية التالية إطار سردي لشرح إحدى حقائق الكتاب)

تعاقب على حكم بني إسرائيل بعد داود ملوك أخيار صالحون. ثم حان عليهم حين امتدت فيه يد الفساد إلى قلوب الحكام. فانحرفوا عن سبل الرب، وسجدوا لآلهة أخرى سواه متأثرين بالشعائر الفاسدة للأمم المحيطة بهم. هكذا قست قلوبهم، واستشرى الجشع بينهم حتى لم يعد أحد يرى أبعد من

مصلحته الذاتية. فأذاقهم الله بسبب ذلك عذاب السبي حتى يعاونوا السخرة والضعف والعزلة، ويحنوا حنينا إلى الوطن الذي أخرجوا منه.

في فترة السبي تلك كان طفل لا يتعدى الثانية عشرة من العمر يعيش في إحدى القرى الصغيرة القريبة من نهر الفرات. كان اسمه زكريا، وكانت أسرته تعمل فوق إحدى المزارع التي يملكها رجل من رجال الدولة. وكان أبوه يوسف رجلا ورِعاً يحب الرب ويواظب على قراءة الكتاب كلما سنحت له الفرصة.

ذات يوم فكر زكريَا مَلِيّاً في كل ذلك العذاب الذي كان أبواه يعانيانه، واستغرب كيف يسمح الله تعالى بذلك. ثم قرر أخيراً أن يفتح الموضوع مع أبيه. فانتظر حتى عاد أبواه من المزرعة وتناولا ما تيسر من الطعام القليل، وطفقا كعادتهما يتحدثان بشوق عن جمال الأرض التي أخرجا منها ويذكران بلوعة تحرقهما للعودة. عندئذ استغل زكريا الفرصة وسألهما قائلا: «لماذا سمح الله بحدوث ذلك؟»ثم لم يتمالك أيضا نفسه فأضاف: «إذا كنا حقا شعب الله فلماذا يعاملنا بهذه القسوة؟» لم يكن سؤال زكريا يعبر عن مرارته بقدر ما كان ترجمة للرغبة العارمة في معرفة ما حصل.

تنهد الأب بعمق وهو يحاول التمدد على الدكة المقابلة لزكريا حتى يستريح قليلا. كان هو أيضا يعرف أنّ ابنه لم يقل ما قاله نتيجة شعور بالمرارة، بل تعبيرا منه عن الحيرة التي استبدت بعقله الصغير وهو يرى الأسرة وباقي أفراد الشعب يعانون ما يعانونه من عذاب وسخرة وهوان. فاحتار كيف يجيب الولد، وكيف لطفل في مثل سنه أن يفهم ما حدث.

عندئذ سأله: «هل يحدث أن أؤدبك أحيانا يا زكرياء؟»فأجاب الولد: «نعم يا أبي ! تفعل ذلك عندما أخطئ.»فقال الأب: «وهذا عين ما حدث يا ولدي للشعب. إن الله تعالى يؤدبهم لأنهم انحرفوا عن سبيله وركزوا اهتمامهم على متاع الدنيا ولذاتها الفانية. كما استمرؤوا السلطة وأحبوا الممتلكات أكثر من حبهم الرب، فتوقفوا عن طاعته والعمل بوصاياه ولم يعودوا قادرين على فعل ما يرضيه. إلاّ أنّ لنا رجاء في الله لم ينقطع أبداً. فقد تحدث العديد من الأنبياء عن أشياء سوف تحدث... أشياء عظيمة ورائعة، ليس لأننا عانينا بما فيه الكفاية، أو لأننا أصبحنا نطيع الله ونتبع سبله بشكل أفضل، بل بسبب رحمته ومحبته لكافة عباده، إن الشعب لا يفتأ يجأر بالتوبة عَمَّا اقترفه من شرور، وما اقترفه آباؤه وأجداده من قبله. والله تعالى يصغي لكل تلك الصلوات التي تلتمس الرحمة والمغفرة وترتيب سبل العودة إلى الوطن الأم. فقبل أن نخرج من الأرض أخبرنا أحد أنبياء الرب أن وقتا سيأتي يبرم الله معنا خلاله عهدا جديدا لا يشبه العهد الذي سبق أن أبرمه مع آبائنا وأجدادنا عندما أخرجهم من أرض العبودية، لأنهم نقضوا ذلك العهد ولم يحفظوه. وقد وعد في عهده الجديد معنا أن يزرع شريعته في العقول ويكتبها على لوح القلوب. وعندها لن يلقن الجار جاره، ولا الأخ أخاه قائلين «اعرف الرب !«لأن الجميع كبارا وصغارا سوف يعرفونه، وسيغفر الخطايا جميعا ويتجاوز عن كل الشرور.

كما أن أحد الأنبياء الموجودين معنا في السبي واسمه ذو الكِفل (حزقيال) أخبرنا قبل مدة قائلا على لسان الربّ: «أتقدس فيكم أمام أعينهم يقول السيد الرب، إذ آخذكم من بين الأمم وأجمعكم من كل البلدان، وأحضركم، وأرش عليكم ماء نقيا فتطهرون من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم، وأهبكم قلبا جديدا، وأضع في داخلكم روحا جديدة، وأنتزع من لحمكم قلب الحجر وأعطيكم عوضا عنه قلب لحم. وأضع روحي في داخلكم فأجعلكم تمارسون فرائضي وتطيعون أحكامي عاملين بها،

وتستوطنون الأرض التي وهبتها لآبائكم وتكونون لي شعبا وأنا أكون لكم إلهاً، وأخلصكم من جميع نجاستكم، وآمر الحنطة أن تتكاثر، ولا أجلب عليكم المجاعة»

وقال النبي يوئيل بلسان الرب أيضا: «ثم اسكب روحي على كل بشر، فيتنبأ أبنائكم وبناتكم، ويحلم شيوخكم أحلاما، ويرى شبابكم رؤى، واسكب في تلك الأيام أيضا روحي على العبيد والإماء.«وكلنا يا ولدي نعرف أن هذه الأمور متعلقة بمجيء شخص سوف يكون هو المخلص».

فسأل زكريا: «وكيف سنتعرف عليه عندما يجيء؟» فأجابه أبوه: «هنالك بعض العلامات من بينها أنه سوف يكون من سبط داود، من نسله مباشرة لكي يسود الشعب مثلما ساد داود لسنين عديدة. وهناك علامة ثانية ذكرها إشعياء وهي أنه سوف يولد من عذراء. وهذه معجزة عظيمة لا يدرك كنهها سوى الله تعالى، إذ ربما أراد أن يخبرنا أن هذا المخلص لن يرث طبيعة البشر الشريرة. هناك أيضا علامة أخرى ذكرها النبي ميخا قبل خُروجنا بقليل من الأرض وهي أن المخلص سوف يولد في بيت لحم، مدينة الملك داود. وهناك أخيرا نبوءة الملك داود نفسه الذي أخبر أن المخلص سيموت ثم يقوم من الموت بحيث لن ينال منه الفساد

عندما سمع زكريا ذلك لم يتمالك نفسه من الدهشة والفرح، فسأل: «هل يأتي هذا المخلص عن قريب يا أبي؟«
فأجابه أبوه: «لا أعرف. لكنني متأكد أنه سوف يأتي لأن الله وعد بذلك. هنالك أشياء يا زكريا أهم بالنسبة لنا الآن من معرفة وقت مجيئه. فكّر مثلا في معنى القلب النقي الجديد الذي وعد الله أن يضعه بداخلنا. وتذكر صلاة داود: «قلبنا نقيا اخلق فِيَّ يا أله «لأن ذلك بالفعل ما سوف يحدث. سيخلق الله فينا قلبا نقيا حتى نعمل مشيئته، وسيملأه بروحه. هل تتصور ذلك؟»

لم يفهم زكريا جميع الأشياء التي أخبره بها أبوه. لكنه استطاع ببراءة الفطرة أن يدرك أن طاعة الرب ستقترن بعد مجيء المخلص بالفرح، وستتحول إلى رغبة عارمة تملأ قلوب المؤمنين في كل لحظة. كل ذلك بدا له عظيما. لكنه عاد يتساءل: «كيف سيكون يا ترى شكل هذا المخلص. هل سيكون ملكا قويا ومحاربا كبيراً؟«وقرر أن يسأل أباه فيما بعد المزيد من الأسئلة.

# الخارق

(الحكاية التالية إطار سردي لشرح إحدى حقائق الكتاب)

أحب زكريا أن يعرف أكثر عن المخلص الموعود وهيئته التي سوف يظهر فيها بين الناس. لكنه لم يكن يحب أن يزعج أباه الذي كان لا يستطيع أحيانا الكلام من شدة التعب. وإذ كان الفصل شتاء والأمطار الغزيرة تَحُول أحيانا كثيرة دون الخروج إلى الحقول، انتظر حتى تسمح الفرصة في أحد تلك الأيام الممطرة، عندما يكون لدى أبيه الوقت والقدرة للإجابة عما شاء من الأسئلة.

لقد تصور هذا المنقذ في خياله على شكل محارب عظيم دي دراية بطرائق القتال، وحنكة كبيرة في إدارة الحكم. كما تَوَقَّعَ أنْ يَنهض ليدمر بقوته شعوب الشر ويقيم شريعة الله الموسومة بعدله على كل الأرض. لهذا كان لا بد أن يمتلك سلطة تفوق سلطة كل الأمم، وتفكيرا استراتيجيا جديدا كل الجدة. لكن ماذا عن القلب النقي الجديد؟ ماذا عن تخليصه الناس من نير الخطيئة؟ هل معنى ذلك أنه سوف يكون أيضاً نبيًّا عظيما يصنع المعجزات كما يصنعها رجال الله الذين طالما حدثه أبوه عنهم؟
أخيراً سنحت الفرصة التي انتظرها زكريا، حيث هبت ريح شمالية باردة باتت تزمجرُ في النوافذ وتصفق الأبواب. ثم أعقبها في الصباح مطر غزير جعل الماء ينهمر مدرارا، فقررت الأسرة لزوم البيت في ذلك اليوم، لذلك بعد تناول الفطور قفز زكريا وأخذ مكانه بجوار أبيه، ثمّ احتشد الجميع ملتفّين بالأغطية الدافئة حول الموقد.

ودون مقدمات بدأ زكرياء الكلام: «أبتي ! حدثني أكثر عن المخلّص. كيف سيكون؟ هل سيكون قائد جيوش قويا؟«
»هكذا تتوقعه أن يكون يا زكريا. أليس كذلك؟«
»بلى ! وهل يمكن أن يكون خلاف ذلك؟«
«لا أعرف ! قوم كثيرون يتوقعون أن يكون كما قلتَ. لكن هناك بعض الأسئلة التي تحيرني بهذا الخصوص.»
«ما هي يا أبي؟«
«هناك مثلا يا زكرياء نبوءة ذكرها إشعياء ووجدت صعوبة كبيرة في فهمها. ولقد سألت العديد من المعلمين عنها، لكنهم وقفوا مثلي حائرين أمامها. تتحدث هذه النبوءة عن المخلّص بصفته خادما، وتصوره تقريبا كشخص سوف يظفر بالغلبة لأنه لن يحارب. كما سيخلص الآخرين بأن يصبح خادما لهم... إنها أشياء غريبة جداً«

ما بدا غريبا للولد حقا هو فكرة أن يكون الخادم مخلّصاً. فقد فكر أن الخلاص يتم عادة عبر جيش كبير أو على الأقل بواسطة حنكة قائد ماهر وذكي.

«ما هي الأشياء الأخرى التي تخبر بها هذه النبوءة يا أبي؟«
«أشياء كثيرة يا زكرياء. من بينها أنه سيكون مثخنا بالجراح إلى درجة أن يصعب التعرف عليه. كما لن يكون له جمال يسترعي النظر، أو أي مظهر من مظاهر الأبَّهة. ولن يكون هناك في شكله الخارجي شيء يجعل الناس يسيرون وراءه. مع ذلك سينضح بدم خلاصه الشعوب جميعا كي تتطهر .«

بدا الولد مرتبكا بعض الشيء وهو يسمع الإشارة إلى «دَم الخلاص «لأنه تذكر الذبائح التي كانت تقدَّم في الهيكل، حيث أن دم الذبيحة كان يُنْضَحُ على المذبح، وأيضاً على الذين تقربوا بها. والله تعالى هو الذي أمرهم بذلك إذا أرادوا التكفير عن خطاياهم، تذكيراً منه بما فعله إبراهيم حين ذبح الكبش مكان ابنه فداءاً لهذا الأخير من الموت.
»ماذا يعني ذلك؟ هل سيكون المخلص كاهنا أيضا؟ قلت يا أبي أنه من نسل داود، فكيف يكون ملكا وكاهنا؟«
»حسناً يا ولدي. أعترف أن ذلك سر من الأسرار. لكنني أعود وأتساءل عن معنى تخليصه لنا من خلال مَنْحِنا قلوباً نقيةً جديدة. حتما يعني ذلك أنه سيكون وسيطا بشكل ما بيننا وبين الرب. والعجيب

أن النبوءة تتحدث عن فدائه لشعوب كثيرة، مما يدل على أنه لن يأتي لتخليص شعبنا وحسب، بل لتخليص شعوب الأرض قاطبة.

سيشفي الأجساد والقلوب. وسيعتبر الناس آلامه من عند الرب. كما سيخترق الحديد جسده لأجل آثامنا وسيسحق لأجل خطايانا. سيذوق العذاب لأجل سلامنا، وبجراحه سوف نبرأ. ها أنت ترى يا ولدي. لقد شردنا عن الحق مثل غنم، وملنا كل واحد إلى سبيله. فأثقف الرب كاهلنا بإثم جميعنا. ولكن المخلص سوف يسكب للموت نفسه كي يحمل آثامنا، ويؤدي ثمن خطايانا«

سيرغب الناس حتما يا أبي في المضي وراءه«

»لا يا ولدي، لن يفعلوا. وهذا ما يزيد الأمر غرابة. سيكون محتقرا ومنبوذا من الناس، ورجل أحْزان طاعنا في الألم. لن يقدره أحد حق قدره. لذلك سيذبح كالشاة من أجلنا، وكالشرير يدفن، لكن قبره سيكون بين قبور الأثرياء. كما يضيف إشعياء بأنه لن يرتكب في حياته جَوْراً، ولن يكون في فمه غش، ومع ذلك سيسحقه الله بالحَزَن«

»لكن لماذا يعامله بكل هذه القسوة؟ أليس هو المخلص الذي وعد الله أن يرسله لنا؟«

»نعم يا زكريا. يبدو أن الأمر كذلك لأني أظن أن الله سيقدمه ذبيحة لأجل خلاصنا، مثلما فعل حين فدى ابن إبراهيم بالكبش الذي ذبح بدله«

«لكن ماذا سيحدث عندما يموت يا أبي؟«

«تتذكر يا زكرياء أن بعض الأنبياء أقاموا أشخاصا من الموت وأعادوهم للحياة... يبدو أن إشعياء يقول كذلك أنّ الله سوف يقيم هذا المخلّص من الموت ويعيده إلى الحياة. فهو يقول بالحرف: «حين يقدم نفسه ذبيحة إثم فإنه يرى نسله وتطول أيامه، وتفلح مسيرة الرب على يده»

فكر زكريا طويلا في الذي سمعه من أبيه في ذلك اليوم، وبدا كل ذلك عصيا على الفهم بالنسبة لعقله الصغير. لكنه حتما لم يكن الوحيد الذي عجز عن فهم أمر تلك الاختلافات المحيّرة.

# مجيء المخلّص

مرت سنون عديدة منذ تحدث زكرياء إلى أبيه. ثم أزف ميقات مجيء المخلّص. لم تصاحب مجيئه أبَّهة القائد العسكري أو الزعيم السياسي، حتى أن قلّةً قليلةً من البسطاء هم الذي انتبهوا لقدومه. فما الذي حدث؟

كان إيلي الراعي الشاب سعيدا بخروجه لأول مرة في تلك الليلة صحبة أبيه وأخيه الأكبر كي يحرسوا القطيع وهو يرعى في هواء الليل الرطب. وبينما هم كذلك إذ ظهر فجأة ملاك من السماء وأعلن لهم ولادة طفل في بيت لحم سوف يكون المخلص. وفي الحال ظهرت معه جوقة من الملائكة يسبحون اسم الله، ويذكرون مجده. فدهش كل الذين رأوا ذلك. ثم قبل أن تختفي الملائكة أعطوا الرعاة علامات للاهتداء إلى ذلك المخلص والتعرف عليه.

نهض الرعاة بسرعة، وانطلقوا تحت جنح الليل قاصدين بيت لحم: لم يكونوا لشدة شوقهم وغبطتهم يعبأون بالمرات العديدة التي زلت فيها أقدامهم على الصخور وهم يغذون السير نحو المدينة مستعجلين ساعة الوصول. فجأة كسر إيلي الصمت بقوله «الحمد لله أن بيت لحم مدينة صغيرة، وإلاَّ كيف كُنَّا سنهتدي إلى المخلص؟«وبالفعل لم يكن سهلا الاهتداء إليه رغم توجيهات الملائكة. فقد كانوا يعرفون أن أكثر من امرأة واحدة ستكون وضعت حملها في تلك الليلة. فكيف يستدلون على التي ولدت المخلِّص من بينهنَّ؟

وإذ وصلوا إلى المدينة طفقوا يسألون كل من صادفوه في الطريق، حتى اهتدوا أخيراً إلى بيت رجل نجار اسمه يوسف، وهناك شاهدوا الطفل، فعرفوا للتو أنه هو الذي أخبرت به الملائكة. كان المكان ضَيِّقاً، لذلك لم تجد الأسرة بُدًّا من استغلال طرف من القسم المخصص للماشية والتوسع فيه. وهنالك صادف أن وضعت مريم زوجة يوسف حملها. فاحتشد الرعاة في ذلك المكان ولم يكفوا طيلة الوقت عن التملي في وجه الطفل. ثم قفلوا عائدين وهم يطيرون فرحاً مما أتيح لهم دون سائر الناس أن يشاهدوه، ألسنتهم لا تلهج بغير ذلك. كان إيلي على الخصوص ممتلئا بالأسئلة. ما معنى كل ذلك؟ لقد سمع قصصا كثيرة عن المخلص القادم. فهل يكون هو ذلك الطفل حقا؟

كان أبوه إسحاق مبتهجا كذلك بما رأى، وقد أسلمته بهجته لتفكير عميق بخصوص ذلك. كما كان قلبه يدق بشدة وهو يتأمل مغزى ما أتيح له أن يشاهده في تلك الليلة. فمنذ أن سمع من الشيوخ باقتراب مجيء المخلِّص، وهو يتحرق شوقا إلى ذلك اليوم العظيم. لقد تكلم مع يوسف، زوج مريم، الذي أخبره تفاصيل أخرى تخص أحداثا وقعت قبل ولادة الطفل الذي أمر ملاك الرب أن يُسَمَّى عيسى. ولم يتمالك إسحاق فجأة أن يتساءل بصوت مرتفع «هل يكون هذا هو المخلص؟«

وبادره ابنه إيلي هو الآخر بالسؤال: «حدثني يا أبي عن المخلِّص. هل يكون هو هذا الطفل المُسَمَّى عيسى؟«فأجابه أبوه: «يبدو أن كل الدلائل تشير إلى ذلك. فالكثير من الشيوخ يعتقدون أن الموعد الذي تنبأ به النبي دانيال قد أزف. والكثيرون ينتظرون الآن قدومه. ثم هناك الملائكة الذين صاحب ظهورهم ولادته. فهم لم يظهروا لنا نحن فقط، بل هناك ملاك ظهر لذلك المسمى يوسف زوج مريم التي وضعت الطفل. كما ظهر ملاك آخر لمريم نفسها قبل أن تحبل بالطفل، وقال لها: «سلام أيتها المنعم عليها ! الرب معك «وإذ اضطربت لكلامه وتساءلت عن معنى تحيته أضاف: «لا تخافي يا مريم، فإنك قد نلت نعمة عند الله! وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا، وتسميه عيسى.«ثم أخبرها أن ذلك الابن سيكون عظيما وذا حظوة خاصة لدى الرب. كما قال لها أن الله سيمنحه عرش داود أبيه، فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد. ولن يكون لملكه نهاية. أما الملاك الذي ظهر ليوسف فقد أمره أن يسمي الطفل عيسى «لأنه هو الذي يخلص شعبه من خطاياهم».

وبالفعل فكلمة عيسى معناها «الذي يخلص «وهي الاسم المناسب للعمل العظيم الذي سوف يقوم به. لكن بينما كان أغلب الناس يتوقعون أن يأتي هذا المخلص ليدمر الرومان ويحرر فلسطين من قبضتهم، وضح فيما بعد أن الخلاص الذي جاء به أعظم شأنا وأكثر شمولا من مجرد إنجاز عسكري. لقد جاء ليخلص العالم أجمع من سلطة الخطيئة.

ثم تابع إسحاق سرد باقي الدلائل قائلا: «أيضا يعلم الجميع يا إيلي أن المخلص سيولد في بيت لحم. وذلك ما حدث بالضبط كما شاهدنا بأم عيننا الليلة. والشيء المدهش أخيراً هو أن يوسف ليس أباً للطفل عيسى. فقد أخبر الملاك مريم أن الله سينشئه في بطنها إنشاءً. لذلك فهو لن ينسب أبداً إلى

رَجُلٍ$. وتعلم يا ولدي أن النبي إشعياء أخبر قبل 700 سنة أن العذراء ستلد ابناً وسيدعى «عمانوئيل» أي «الله معنا».

بعد أسبوع أو أكثر على تلك الأحداث، دخل إسحاق وأخبر أسرته بحكاية أخرى تخص ذلك الطفل العجيب. فقد أخذه أبواه إلى الهيكل ليقدماه إلى الرب مثلما هو مكتوب في شريعة موسى. وهنالك حدث أمر مدهش للغاية. فبينما هما يَلِجَان$ باب الهيكل تقدم نحوهما رجل مسن يدعى سمعان وحمل الطفل بين ذراعيه وقال: «أيها السيد، الآن تطلق عبدك بسلام حسب وعدك ! فإنَّ عينَيَّ قد أبْصَرَتَا خَلاصك الذي هيأته لتقدِّمَه إلى الشعوب كُلِّهَا، نور هداية للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل»

فتعجب يوسف ومريم مما قاله سمعان عن عيسى، ثم باركها الرجل وأخبر مريم أن «ذلك الطفل سيكون سبب سقوط كثيرين وقيام كثيرين في إسرائيل، وآية تقاوَم لكي تتكشف نيات قلوب كثيرة.«كما أخبرها أن «سيفا سيخترق نفسها هي كذلك»
وبعد أن انتهى سمعان من كلامه، تقدمت منها نبية اسمها حنة تبلغ من العمر أربعا وثمانين سنة، وشكرت الرب ثم تحدثت عن عيسى لجميع الذين كانوا ينتظرون المخلّص

استمعت الأسرة بهدوء واهتمام، وحاول كل فرد التفكر في معنى ذلك سواء بالنسبة له أو بالنسبة لباقي الشعب، لقد كانت يد الله بادية في كل ما حدث، ولكن لُبَّ المسألة وطبيعة وتفاصيل الخلاص كانت كلها مسائل لا تزال غامضة.

---

عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، ص. 167
إشعياء: (9:6)
إشعياء: (7:14)
ميخا: (5:2)
المزامير: (16:10)

# تَمَامُ الآيات

تعقابت السنون، وكبر إيلي، وتزوج، وصار له أبناء. ثم في أحد الأيام بدأت تصله أخبار غريبة عن معلم يشفي الأدواء ويصنع الآيات في مدينة تقع شمال البلاد. كان إيلي وقتها قد نسي أمر الطفل عيسى، وكل ما علق بذاكرته هو أن يوسف ومريم اختفيا ذات ليلة. وبعد اختفائهما بقليل جاء عساكر الملك وقتلوا كل طفل في عمر عيسى في بيت لحم والمناطق المجاورة. وأتضح بعد ذلك أن السلطات لم تكن مرتاحة لمولد ذلك الطفل.

أما المعلم الشاب الذي سمع عنه فكان يسمى عيسى أيضا. وكان يحدث الناس عن ملكوت الرب (المتألف من عباده الأبرار) ويصنع الآيات العجيبة. أفيكون إذن هو المخلص؟ في تلك الأثناء زاره أحد أقاربه ممن يقطنون مدينة الناصرة حيث كان يوجد آنذاك هذا المعلم، كان اسم قريبه سمعان. وقد

جاء ليحتفل بأحد الأعياد في مدينة القدس. فبدآ بين الفينة والأخرى يتجاذبان أطراف الحديث عن ذلك المعلم العجيب.

ـــ«ماذا قال عيسى عندما تحدث في الناصرة؟«
ـــ«تصور ! قال كلاما مهما جدًّا يا إيلي، وتحدث كثيرا عن ملكوت الله. فأول ما دخل فتح الكتاب في المكان الذي يقول فيه إشعياء: «روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأبشر الفقراء، أرسلني لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعميان بالبصر، لأطلق المسحوقين أحرارا، وأبشر بسنة القبول عند الرب.«ثم جلس وقال: «اليوم تم ما سمعتم من آيات...» ولكن يا إيلي قليلون اعتقدوا في قدرة ابن النجار ذلك على إتمام تلك النبوءة« .
ـــ «وهل هو ابن نجار يا سمعان؟«
ـــ «نعم يا إيلي، وقد ترعرع في الناصرة« .
ـــ «هل اسم أبيه يوسف واسم أمه مريم؟«
ـــ «كيف عرفت ذلك يا إيلي؟«
ـــ «لأنه ولد في بيت لحم قبل ثلاثين سنة. هل تذكر الملائكة التي كنا أخبرناكم أنها ظهرت لنا ليلا ونحن نحرس القطيع، وأخبرتنا عن ولادة المخلص؟«
ـــ «نعم...نعم...و« . . .
»كان اسم الولد عيسى، واسم أمه مريم. وقد أخبر يوسف أبي آنذاك أنه لم يكن أبا للطفل. كان واضحا أنه ولد بمعجزة خاصة من الرب. وقد بلغني يا سمعان أن عيسى هذا ذهب إلى يحيى النبي ليتعمد على يديه، فسُمع صوتٌ من السماء يقول أن عيسى ابن الله وحبيبه الذي سر به أيما سرور« .
ـــ «إذن لا غرابة يا إيلي أن يصنع كل تلك العجائب مثل شفاء الأعمى والأصم وغير ذلك. لكن يا صديقي كم يبدو مظهره الخارجي عاديا جداً. فلا هو وسيم ولا قوي. وقد حدث مرة أن صدم مشاعرنا.»
ـــ «كيف؟«
»لقد قال إن الله يفضل أحيانا أن يكرم أبناء الأمم الأخرى أكثر مما يكرمنا نحن، وكيف أنه تعالى اختار أرملة غريبة كي تطعم أحد أعظم أنبيائه مع أنه كان في إسرائيل في ذلك الزمان أرامل كثيرات. فقل لي يا إيلي، ألا ننتمي نحن إلى ملكوت الله؟ ألسنا شعبه المختار؟«
ـــ «بلى يا سمعان. هذا صحيح بشكل من الأشكال. ولكن ملكوت الله حتما ليس ملكوتا جسمانيا، بل هو ملكوت روحي. ويبدو أن لهذا الرجل سلطة روحية خارقة« .
ـــ «معك حق يا إيلي، إنه كذلك. فبعد أن تركنا توجه إلى كفرناحوم وهناك ذهل الناس لما رأوه يتكلم بسلطة. وقد أخبرني بعضهم أنه كان مختلفا جدا عن رجال الدين الذي كانوا يستشهدون على الدوام في حديثهم بكلام غيرهم، ثم زجر عيسى روح شيطان نجس كانت تسكن رجلا هناك، فخرجت ولم تصبه بأذى. بعد ذلك شفى امرأة مسنة، فنهضت في الحال وبدأت تخدم المعلم ومن معه. والأغرب من ذلك كله هو أنه شفى المرضى حتى في يوم السبت الذي هو يوم مقدس عندنا، إذ لا يفتأ رجال الدين ينبهون عن القيام بأي عمل خلاله. لكني يا إيلي لست واثقا إن كان الله يحب القيام بتلك الأشياء الصالحة يوم السبت؟ ما رأيك؟«
ـــ «إذا أردت الحقيقة يا سمعان، فإني ذات سبت شاهدت رجل دين ينتشل ثوره من حفرة سقط فيها، وأظن أن القيام بشفاء شخص أهم من ذلك بكثير. فالله تعالى لا يقوم في سمائه فقط بإحصاء أعمالنا الصالحة والسيئة، بل يحب أن يرى قلوبنا ممتلئة رحمة ومحبة»

ـــ «تعرف يا إيلي، كنت دائما أظن أن الأغنياء فقط يستطيعون إرضاء الله لأنهم يملكون ما يكفي من الوقت كي يقوموا بالأشياء المكتوبة في الوصايا، ولكن عيسى كان على صواب عندما قال أن الله يحب الفقراء أيضا. لذلك حمل لهم أخباره السارة حتى لا يكون فرق بينهم وبين إخوانهم الأغنياء« .
ـــ «نعم يا سمعان، وما يقوله عيسى تؤكده سلطته الروحية ومعجزاته.»
ـــ «لقد اشتاقت نفسي الآن يا إيلي الاستماع إلى هذا الرجل مرة أخرى. هل تريد أن ترافقني إليه؟ اترك أولادك يحرسون الغنم، وتعال معي بضعة أيام« .
ـــ «أظن يا سمعان أن ذلك ما سوف أفعله« .

# عظمة المغفرة

مرت أشهر عديدة على الحديث الذي دار بين نيقوديموس ويوسف. ثم حدث أن ذهبا ثانية لسماع عيسى في إحدى حلقاته. فوجدا ضمن الحضور بعض رجال الدين الذين أتوا من مناطق مختلفة من البلاد. كانت قوة الرب حاضرة بشكل عظيم في ذلك اليوم لشفاء كثيرين. لكن بينما الناس ينصتون باهتمام إلى ما كان يقوله المعلم إذا أربعة أشخاص يحملون على فراش رجلا مشلولا ويصعدون به إلى السطح لأن المنزل كان مزدحما عن أخره بالأتباع. وهناك من فتحة حفروها في آجر السطح ودلّوه إلى الوسط أمام عيسى.

فتأثر المعلم كثيرا بإيمان الأشخاص الأربعة وقال للرجل المشلول «أيها الرجل، قد غفرت لك خطاياك !«فأحس نيقوديموس ويوسف بنفسهما تنقبض انقباضا عند سماع ذلك، إذ كان الأمر أكثر مما يحتملان. كيف لمجرد بشر أن يغفر الخطايا؟ كان إيلي وسمعان جالسين ينصتان في نفس القاعة. وقد أحسا بموجة هرج عندما نطق عيسى بكلماته للمشلول. كما أحسا بالتوتر يعتري رجال الدين الحاضرين.

وقد شعر عيسى أيضا بالتوتر يصيب أولئك. شعر به أكثر من إيلي وسمعان. وأدرك ما كان رجال الدين يفكرون فيه إذ كانوا يقولون «من هذا الذي ينطق بكلام التجديف؟ من يقدر أن يغفر الخطايا سوى الله وحده؟«

وجوابا على ما كانوا يفكرون به خاطبهم عيسى قائلا: «لماذا تفكرون بذلك في قلوبكم؟ أي الأمرين أسهل: أن أقول: قد غفرت لك خطاياك ! أم أن أقول: قم وامش! ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان على الأرض سلطة غفران الخطايا...» ثم قال للمشلول: «لك أقول: قم احمل فراشك، واذهب إلى بيتك «وأمام دهشة الجميع نهض الرجل وحمل فراشه ومضى ممجِّداً الله تعالى، فوقف نيقوديموس ويوسف مذهولين. كان عليهما أن يأخذا وقتا ليتفكرا مليا من جديد فيما قاله عيسى بخصوص غفران الخطايا.

ما معنى أن «ابن الإنسان «كما كان يحلو له أن يسمى نفسه «له على الأرض سلطة غفران الخطايا.«كان عليهما أن يمحصا هذا القول جيدا قبل أن يدينا قائله. عندئذ تساءل نيقوديموس إن كان عيسى هو المخلص الموعود، وسأل يوسف عن ذلك. فاستغرق هذا الأخير في التفكير وهز كتفيه ليس لأنه لم يكن يعرف بل لأن الفكرة بحد ذاتها هيمنت كثيرا عليه.

»لم أكن أبداً أتصور المخلص هكذا .لكن هذا لا يعني أن تصوري كان في محله«
وصل المشلول الذي شفي إلى منزله حاملا فراشه. وهناك لم ينشغل أحد بالاهتمام أو السؤال لماذا كان يحمل فراشه في يوم مقدس. بل تصاعدت بدلا من ذلك صيحات الدهشة والفرح. واغرورقت بالدموع عيون الذين هَبُّوا لاستقباله عند باب المنزل. كان أصدقاؤه الأربعة بصحبته وكانت ألسنتهم لا تفتر عن تمجيد الله وتمجيد هذا الرجل المسمى عيسى الذي شفاه. وبعد أن هدأت الفرحة وبدأ الحاضرون يتجاذبون أطراف الحديث بادر أحد الأصدقاء الأربعة صديقه الذي شفي بالسؤال: «لماذا في نظرك خاطبك عيسى بقوله أولا: «قد غفرت لك خطاياك«؟«

خيَّم صمت عميق على الغرفة قبل أن يتنحنح الرجل ويقول بهدوء: «قبل سنوات امتدت يدي إلى مال ليس لي وسرقته. لم يعرف وقتها أحد بذلك، ولا أظن أحدا يعرف الآن. لكنني فيما بعد أدركت فظاعة جريمتي التي باتت تؤرقني كثيراً. وكم خشيت أيضا أن يكتشف صاحب المال السرقة، كما أدركت أنني لا أستطيع فعل أي شيء للتفكير عن ذنبي سوى إعادة المال إلى صاحبه. لكن ذلك المبلغ لم يعد معي لأنني صرفته. واشتد انزعاجي وقلقي بسبب ذلك كثيرا إلى أن كان يوم أحسست فيه بمفاصلي تنقبض شيئا فشيئا، وتزيد يوما بعد يوم انقباضا. ثم ذات صباح لم أستطع مغادرة فراشي بتاتا.»

ـــ «إذن عرف عيسى أن خطيئتك كانت السبب الحقيقي لشللك«
ـــ «نعم، وعندما قال «غفرت لك خطاياك «أحسست بجسمي يتحرر من قيوده، حتى إذا أضاف قائلا «احمل فراشك «استطعت بسهولة فعل ذلك« .
ـــ «والمال لماذا سرقته؟«
ـــ «كانت أسرتي في ضيقة شديدة، ولم نجد طعاما نأكله. لكنني أريد أن أعوِّض صاحب المال ولا أعرف كيف؟«ثم نكس الرجل رأسه فيما انطبعت ملامح الحزن العميق على جبينه.
ـــ «متى سرقت ذلك المال؟«
ـــ «قبل حوالي ثلاث سنوات. مباشرة بعد موسم الحصاد« .
ـــ «هل كان ذلك في الفترة التي كنت فيها مريضا وغير قادر على العمل في الحقول؟»
ـــ «نعم، ولذلك لم أكن أملك حينئذ مالا«

شيئا فشيئا بدأ الناس ينصرفون. وإذ لم يبق سوى القليل ناداه أحدهم جانبا وقال له «لقد كنت أعرف طوال هذه المدة أنك من سرق المال. وقد انتظرت طويلا أن تأتي وتعترف بجرمك. وكان بوسعي أن أسامحك لو أتيت لأنه مبلغ صغير جدّاً ولأنني أحببت أن تعبر عن أسفك«

مرة أخرى خيم صمت عميق وانحدرت دموع أسف شديد فقال له الآخر: «لقد غفر المعلم خطاياك، وأنا أيضا أسامحك. سلامٌ عليك «ولثاني مرة في ذلك اليوم أحس الرجل بالإنعتاق.

خلال هذا الوقت كان زملاء نيقوديموس ويوسف في المجمع يخططون للثأر من المعلم الشاب الذي اعتبروه نبيًّا كاذبا يخدع الشعب. وشيئا فشيئا بدأت معالم الصدام تتحدد بين عيسى من جهة والسلطة الدينية من جهة أخرى. لقد بات يشكل تهديدا حقيقيا لرجال الدين لأنه كان يضعهم أحيانا كثيرة في مواقف حرجة بسبب السلطة التي كان يعلم بها والمعجزات التي كان يدعم بها تعليمه. وقد نبذهم لأنهم جعلوا في نظره الدين مطية للتباهي وتحقيق الأغراض الشخصية. كما رفض أن يصبح الدين بالمفهوم المقنن للشريعة حاجزا آخر بين الخالق وخليقته.

استمع يوسف ونيقوديموس إلى زملائهما وأحسا بأنهم لم يكونوا على صواب فيما يفكرون، لأن رد فعلهم كان يبدو مبالغا فيه، ثم بدآ يتساءلان فيما بينهما إن كان عيسى هو المسيح القادم بحق. وإذ كانا وحدهما في طريق العودة حيث لا أحد يستطيع استراق السمع إلى ما يقولانه، بدأ يوسف يتكلم عن العلاقة بين الفقراء وبين ملكوت الله الذي كان عيسى يبشر به. فبدا لهما أن تركيز المعلم كان منذ البداية حول إعلان البشرى للفقراء. وهؤلاء كانوا بدورهم يتلقون أخباره السارة بفرح كبير، فقد شفى مرضاهم وحرر المسكونين منهم بالأرواح.

» هل ترى يا يوسف كم يبدو أكثر لطفا مع الخطاة لأنهم يدركون خطاياهم ولا يتخفون وراء قناع العمل حسب الشريعة. إنه على حق، فكم بيننا في المجمع من شيوخ يقولون بألسنتهم ما لا يفعلون« .

» معك حق يا نيقوديموس. فعيسى يديننا عندما نفكر أن باستطاعتنا نيل مرضات الله بواسطة أعمالنا، لأن الله قدوس بشكل مطلق، ولا ترضيه أبدا الأعمال التي تظل مهما بلغت من الصلاح ناقصة، كما لا يقبل أن يحاول البشر إرضاءه بالطريقة التي يحاولون بها إرضاء بعضهم البعض، لأن ذلك نيل عظيم من قداسته« .

# حكاية غامضة

كانت مريم تشعر بسعادة كبيرة وهي تقف وسط ذلك الحشد مرهفة أذنها إلى ما كان المعلم يقوله. كانت بحاجة إلى سماعه ومعرفة المزيد من تعاليمه العظيمة، كما كانت معجزاته صادعة بالحقائق الربانية التي لا يأتيها الباطل من أمام أو خلف. لكنها اختبرت شيئا آخر أكثر أهمية، ربما كان هو أيضا معجزة. إنه السلام الذي طالما تاقت إليه مع الرب. هكذا كانت تنصت باهتمام إلى المعلم الشاب وهو يتحدث عن ملكوت الله، وما يعنيه بالنسبة لمن كانوا يستمعون إليه، فيما كلماته العذبة تهبط على قلبها بردا وسلاما لم تختبرهما منذ سنين عديدة.

كان يتكلم للحشد المتزاحم حوله عن مُزارع فرغ من حرث الأرض وطفق يرمي البذار للموسم المقبل. فصادف أن وقع الحب في أماكن مختلفة من الحقل. فبعض البذار وقع فوق الممر الممتد على جانب الحقل حيث الأرض صلبة وجافة. فلم يجدْ منفذا في التربة وبقي فترة هناك. لكن ما إن غادر المزارع حتى جاءت الطيور والتقطته في ثوان معدودة.

على مبعدة من ذلك الممر كانت بعض نتوءات صخرية تبرز في الحقل. وهناك سقط أيضا بعض البذار فنفذ في التربة الرقيقة محميًّا من هجمات الطيور، وتمكن من النمو. لكن ما إن طلع الشطأ حتى اصطدمت الجذور بالصخر ولم تستطع الامتداد أكثر إلى الماء مصدر الحياة. وإذ كانت حرارة الشمس مرتفعة في ذلك اليوم يبس الشطأ واحترق وذهب ذلك البذار سدى.

في مكان آخر من الحقل سقط البذار فوق أرض ممتلئة بالشوك. كان المزارع قد اقتلع معظم الأشواك، لكن جذورها بقيت راسخة في بعض الأماكن، وعندما صادفت الماء والمواد المغذية بدأت تكبر من جديد. وهكذا بدأ الزرع والشوك ينموان جنبا إلى جنب في سباق مع بعضهما البعض نحو الماء والشمس والهواء. لكن في النهاية تغلب الشوك على الزرع وسلب منه مادته الحيوية، فأصبح ينمو ببطء شديد لم يصل به مرحلة إخراج البذر.

لكن وسط الحقل حيث التربة رطبة وسمراء سقط البذار أيضا فنفذ عميقا في التربة مادًّا جذوره حتى الماء المترسب، وإذ لا صخر ولا شوك نما الزرع وطال. ولم يكد يصل موسم الحصاد حتى امتلأ سنابل مثقلة بالحَبِّ.

وقفت مريم مرتبكة بخصوص ما سمعته من المعلم «ماذا حاول يا ترى أن يقول بحكايته تلك «ولم تكن وحدها المرتبكة فقد لاحظت علامات الحيرة على وجوه الكثيرين، حتى الخاصة من حواريي عيسى لم يبد عليهم أنهم فهموا تماما ما رمى إليه. لذلك عندما شاهدتهم يلتفون حوله اقتربت أكثر حتى تكون على مرمى منهم عساها تظفر بشيء من التوضيح.

كان الهدوء مخيما بشكل سمح لكلمات عيسى الرقيقة كي تصلها بوضوح. فسمعته يخبر خلصاؤه أن البذار يرمز إلى كلمة الملكوت حيث أن البذرة في الحالة الأولى تسقط على شخص متصلب غليظ القلب يرفضها ولا يستسيغها ولو لحظة. فيبقى قلبه مرتعا للشياطين التي تتخطف كل ما يقع فيه.

ثم انتقل إلى شرح النتوءات الصخرية فقال إنها ترمز إلى الذين يسمعون كلمة الله ويتقبلونها بفرح عظيم، فتمتلئ حياتهم سعادة وينعمون بالسلام بفضل تجدد علاقتهم مع الخالق. لكن بعد فترة يحدث اضطهاد، ويهاجمهم الناس بسبب إيمانهم ويؤذونهم. عندئذ يتوقفون عن إتباع الكلمة ويعودون سيرتهم الأولى.

أما الأرض الممتلئة شوكا فقال أنها ترمز إلى الذين يقبلون كلمة الله ويستمرون في ذلك العمل حسَبَها. فينمون فيها ويكبرون، ولكن أشياء العالم تسترعى انتباههم فيحبون أن يعيشوا الحياة الرغدة، وينعموا بالأشياء التي توفرها لهم إمكانياتهم المادية. نعم إن ملكوت الرب شيء مهم في حياتهم، ولكن أشياء العالم من ممتلكات ومتعة حسية تبدو أهم بالنسبة لهم. وشيئا فشيئا يبدأ حُبّ الدنيا الفانية يخنق حبهم للملكوت. فينتصر العابر على الأبدي، ويذهب كل شيء سدى.

ثم قال إن الأرض وسط الحقل ترمز إلى الذي سمع كلمة الملكوت وقبلها، فصادفت فيه توقا عظيما، وهذا التوق وَفَّر لنفسه الغذاء الضروري للنمو. لقد جعل هذا الشخص نفسه في مأمن من مغريات الحياة الفانية حتى يترك المجال للملكوت كي يكبر ويتعاظم بداخله، ويثمر في النهاية محاصيل وفيرة من محبة وخير وسلام ورحمة وطيبة وصبر ورباطة جأش وغير ذلك. وإن البعض في ذلك أوفر غلالاً من البعض، لكن الملكوت بداخلهم جميعا.

بدأت مريم تفكر فيما سمعته وتتساءل مع نفسها: «ماذا يعني بالنسبة لي أن أعمل حسب الكلمة؟ وما هو السبيل لكي أثمر روحياً؟»

فكرت في عدد المرات التي أراد الله تعالى لها أن تسلك سبيلا معيَّناً، ولكنها أبت إلاَّ أن تسلك غيره. وباستياء تذكرت حالات الرفض والتمرد تلك. ثم فكرت في المرات التي انتقدها الناس ونبذوها بسبب إيمانها. ومرت عليها بعد ذلك أوقات أحبت كثيراً فيها أن تستمتع بالحياة، فاختلست لحظات تذوقت فيها لذات الحس بحرية وعمق، حتى كان يومٌ اكتشفت فيه أن محبتها لله والرغبة في ملكوته أضعف من أن تستشعرهما. فبدأت شيئا فشيئا تقتلع الأشواك من بستان نفسها الروحي لكي تنعم بازدهار الكلمة في داخلها من جديد.

بعد فترة خلال نفس اليوم سمعت عيسى يروي حكاية أخرى عن عدو زرع زواناً في حديقة الملِك. وقد شرح أن هذا العدو هو الشيطان الذي لا ينفك يشغل الإنسان عن الإيمان بالكلمة: فتذكرت عمل الشيطان في حياتها من قبل. ولم تعد راضية أن يحدث لها ذلك من جديد.

وإذ نظرت إلى وجوه الجالسين حول عيسى رأت أمثلة مختلفة من التربة التي تحدث عنها. فقد كان هناك رجال الدين بأجبنتهم المقطبة، كما شاهدت أولئك الذين يبدو أنهم لا يحملون الحياة محمل الجد حيث كانوا يتضاحكون ويتهامسون بينما عيسى يتحدث. وكان هناك الذين بدا عليهم الفرح وهم يستمعون إلى الكلمة، ولكنهم ما فتئوا ينظرون حولهم ليتأكدوا أن أحدا من معارفهم لا يراهم. وكان هناك الأغنياء الذين كانوا منشغلين أكثر بالنظر إلى ثياب الحاضرين. لكن السؤال الأهم بالنسبة إليها كان هو علاقتها بالكلمة ومدى استعدادها للإيمان والعمل بها بغض النظر عن الثمن الذي قد تدفعه. كانت ببساطة تتساءل عن أي أنواع التربة هي.

# العاصفة

(هذه الحكاية إطار سردي لشرح إحدى حقائق الكتاب)

كان بطرس جالسا فوق صخرة تشرف على البحيرة التي اعتاد الصيد فيها لسنوات خلت. وكان شريط أحداث الأمس يمر بسرعة أمام عينيه بينما هسيس المياه الهادئ يداعب بلطف حصى الشاطئ. كان يستشعر بالكاد النسيمات القليلة التي كانت تهب بين الفينة والأخرى على البحيرة، مما أضفى عليها هدوءا غير معتاد في مثل ذلك الوقت. فقد قضى عيسى نهار الأمس يعلم الحشود الكبيرة التي تقاطرت عليه من كل مكان، حيث تحدث إلى أناس كثيرين، وشفى مرضى كثيرين، وأحب أخيرا أن

ينفرد بحَوارييه. لذلك طلب من بطرس والآخرين أن يعبروا إلى الطرف الآخر من البحيرة حتى يتسنى لهم ذلك.

أحب بطرس فكرة الاجتماع بالمعلم على الطرف الآخر لأنها تتيح له عبور البحيرة التي أحبها كثيراً. فأبحر الـحَواريون في عدة قوارب صغيرة قاصدين مكانا منعزلا في الجهة المقابلة حيث يستطيعون الانفراد بمعلمهم. وحين انطلقت القوارب تمدد عيسى في مؤخر أحدها واستسلم للنوم تحت تأثير الهدهدات الخفيفة للقارب. لكنْ ما هي إلا لحظات حتى تغير كل شيء تماما. فقد كانت البحيرة توجد في واد عميق يقع تحت مستوى سطح البحر مما يجعل المنطقة عرضة للعواصف القوية بشكل معتاد. وذلك ما حدث عندما كانوا يعبرون في تلك الليلة، إذ هبت رياح عاتية رفعت الأمواج الضخمة عاليا وجعلت القوارب تشرف على الغرق، فهي كما قال ابن الرومي:

تراها إذا هاجت بها الريح هيجةً
تَزَلْزَلُ في حوماتها بالقوارب
نوائل من زلزالها نحو خسفها
فلا خير في أوساطها والجوانب
زلازلُ موجٍ في غمارٍ زواخرٍ
وهدّات خسفٍ في شطوط خوارِبِ

فأصاب الهلع بطرس والآخرين رغم أنهم اعتادوا الصيد لسنوات هناك.
حاول الـحَواريون جهدهم كي ينقذوا القوارب من الغرق مستنفرين مهارتهم كصيادين وبحارة ولكن دون جدوى. فقد كانت كمية الماء التي تتدفق بعنف إلى داخل القوارب أكثر من تلك التي يفرغونها بواسطة الدلاء خارجها، حتى أوشك اليأس أن يصيبهم. ثم حاول بطرس أن يقدر المسافة التي لا زالت تفصلهم عن الشاطئ لكنه لم يستطع لأن الوقت كان ليلا. فشعر بالإحباط وخيبة الأمل لأن عيسى كان لا يزال نائما. وتساءل بإزعاج كيف لأحد أن يبقى نائما في مثل تلك الأحوال. إذ العجيب أن المعلم كان ينعم بنوم هادئ كنوم الوليد رغم أن القارب كان يهتز اهتزازا عنيفا بمن عليه. كان بطرس يعرف أن عيسى ليس بحارا أو صياداً، لكنه على الأقل يمكن أن يساعدهم في إفراغ المياه مثل باقي الحواريين خارج القارب بواسطة أحد الدلاء. لذلك استداروا نحوه في غمرة إحباطهم قائلين: «يا معلم ! أما يهمك أننا نغرق؟»

لقد شوش الخوف تفكيرهم و إلا كيف يسألونه إذا كان لا يهمه أمر غرقهم، وقد شاهدوه من قبل يهتم بالمرضى والجياع والفقراء والمسكونين بالأرواح؟ كان عليهم أن يدركوا أن عين الله تحرسهم.

تذكَّرَ بطرس كيف أن عيسى نهض رابط الجأش دون شعور بالصدمة أو الفتنة بسبب ما كان يحدث حوله حيث وقف ببساطة وفعل شيئاً غريبا جدًّا. لقد زجر الريح وقال للبحر: «اصمت! اخرس! «فبدا كمن يزجر طفلا شقيًّا. ولأنه تكلم بسلطان استجابت الريح وخيَّم الهدوء من جديد على البحيرة. فذهل بطرس بشدة مما رآه.

ثم أحس فجأة بالانكماش حين تذكر ما حدث بعد ذلك. فقد كان موقفا حرجا عندما استدار عيسى نحوهم ووبخهم قائلا: «لماذا أنتم خائفون؟«

فلم يجدوا لسؤاله جوابا. فقط نظر بطرس وأخوه إندراوس إلى عيسى ثم حولا نظرهما عنه إلى الماء الذي كان يداعب القارب بهدوء. فالموج الصاخب والريح العنيفة تحولا بقدرة قادر إلى مويجات صغيرة ونسيمات خفيفة جداً. لقد أصابهما الرعب لبرهة وتساءلا عمن يكون عيسى. كيف استطاع فعل ما فعل؟ ألَمْ يقف فقط ويأمر الريح أن تخرس ففعلت. عجبا! أوَ حتى الريح والموج تطيعانه.

قاطع أندراوس تفكير أخيه بطرس قائلا:
ـــ «أعرف ما تفكر به يا بطرس» .
ـــ «ألا تفكر أنت كذلك بنفس الشيء؟»
ـــ «طبعا»
ـــ «ليس عيسى يا أندراوس معلما عاديا أو حتى صانع معجزات»
ـــ «أعرف ذلك» .
ـــ «حسنا، فقد أجرى آيات لا يصدقها العقل. جعل العمي يبصرون والمشلولين يقومون. ولكن أن يزجر الريح والأمواج! من هو عيسى حقا؟ إننا لم نسمع بشيء مثل هذا من قبل ". ظل أندراوس صامتا، ثم جلس بجوار أخيه بطرس وطفق يقذف حصوات صغيرة في الماء. وفجأة قال:
ـــ «إن لعيسى يا بطرس علاقة حميمة جدا بالرب. فثقته مطلقة في محبته. كما أنه يبدو دائما متأكدا أن الله لن يفعل سوى ما يراه صالحا لنا. لذلك تعجب عندما رآنا خائفين كل ذلك الخوف. كان يتوقع أن يكون إيماننا أقوى بعد كل ذلك الوقت الذي قضيناه بصحبته» .
ـــ «معك حق يا أخي. لكن تلك الأمواج كانت أعتى من كل الأمواج التي شاهدتها في حياتي. كيف كان يتوقع رد فعلنا؟»
ـــ «لقد قلت لك يا بطرس. كان يتوقع أن يكون إيماننا أقوى، بغض النظر عن الظروف التي تواجهنا » .
ـــ «نعم يا أندراوس أشعر أنني كنت بحق مفتقدا للإيمان»
ـــ «وأنا أيضا»

نهض الأخوان معا واتجها نحو عيسى والحواريين الآخرين، بينما الذهول لا زال مخيما على عقليهما بسبب ما رأياه من سلطان للمعلم على الريح والأمواج. وفكر أنه إذا كان بوسعه السيطرة على عواصف البحر كما شاهدا فحتماً بوسعه السيطرة كذلك على عواصف الحياة.

# قوة المحبة

بينما إيلي وسمعان يسيران وراء عيسى في أحد الأيام، سمعا رجال الدين يتذمرون من نوعية الأشكال البشرية التي يخالطها المعلم. فأجابهم هذا الأخير بأنْ سَرَدَ لهم حكاية لأجل العبرة.

تدور أحداث تلك الحكاية حول رجل كان له ابنان أحب أصغرهما أن يغتنم شبابه للاستمتاع بملذات الحياة، فذهب عند أبيه وقال له «اعطني يا أبي الحصة التي تخصني من الميراث.»فأدرك الأب للتو أن ابنه كان على خطأ في طلبه ذلك. لكنه أحب أن يمنحه حرية التمرد. كما كان يعلم أن حبه لابنه وتحقيقه طلبه سيكلفه نصف ثروته التي أنفق عمره يجمعها بعرق جبينه. لم يشأ عيسى أن يسرد التفاصيل الصغيرة للحكاية. فقط اكتفى بالقول إن الرجل قسم كل ما يملك بين ابنيه.

بعد ذلك باع الأخ الأصغر كل حصته وجمع كل ما درّه عليه بيع ممتلكاته من مال وفير ورحل طلبا للمتعة في البلاد النائية. فتقطع قلب الأب من الحزن وهو يرى ابنه يغادر الضيعة. كان على يقين أنه لن يعود إلا محطما، خاوي الوفاض. وكان الأخ الأكبر يراقب أخاه هو كذلك، ولكن بقلب يقطر اشمئزازا. كان يعرف أن أخاه سوف يبدِّد ثروته في سُبُل الخلاعة، وأحس هو بالزهو لأنه لن يفعل أبداً شيئا بتلك السخافة، بل سيعمل يكد ويربح أموالا أكثر ليضاعف حصته من الثروة.

في البلاد النائية وبعيداً عن أية رقابة أخلاقية طفق الابن الأصغر يبعثر أمواله ذات اليمين وذات الشمال وراء كل ما يحلو له. فتمادى في شرب الخمر، ومعاشرة المومسات وأحس بتمام المتعة أو هكذا بدا له. في نفس الآن استمر الأخ الأكبر في الكد بعد أن تحقق أن جُهده سوف يؤتي له الأكل وحده دون أخيه الفاسق. كان يعمل من الفجر حتى أول الليل دون إحساس بالكلل، ما عدا أيام العطل المقدسة. فبدأت ممتلكاته تنمو وتزيد. ولم يفطن الأخ الأصغر إلاَّ والمال الذي معه قد أوشك على النفاد. فلم يعد يستطيع الإنفاق كما كان يحب. لذلك فكر في أن يبحث لنفسه عن عمل. لكن مجاعة قاسية اجتاحت البلد في تلك الأثناء، فلم يعد في الأسواق طعام يكفي لكي يشتريه. كما أن أصدقاءه صاروا أقل استعدادا لاستضافته، وشيئا فشيئاً عدلوا عن ذلك نهائيا. وهكذا صار الطعام أكثر فأكثر ندرة وأصبح القليل النزر منه يباع بثمن باهظ. فكان لزاما عليه أن يعثر عن أي عمل كي يعيش. لكن أين؟

بدأت أبواب العمل تغلق الواحدة تلو الأخرى في وجهه، وكاد يشرف على اليأس لَوْلا أن عثر ذات يوم على ما يشبه العمل. ويا له من عمل! فقد استأجره شخص لإطعام خنازيره. كان عملا مثيراً حَقًّا للاشمئزاز نظرا للرائحة الكريهة والقذارة. كان كتاب الله الذي لم يقرأه إلا لماماً ينهى عن أكل لحم الخنزير، لكنه كان مضطرا أن يقبل ذلك العمل. وكم كان يشتهي أحيانا لشدة جوعه أن يملأ بطنه من الطعام الذي كان يقدمه لتلك الخنازير.

على العكس من ذلك كان الأخ الأكبر يعيش مثل مَلِك. فالمجاعة لم تصب بلادهم وبَقي الطعام عندهم وفيراً. كما أن العمل الجَادَّ والأمطار الغزيرة تضافرت لتعطي نتائج عظيمة. فأحس الأخ الأكبر بالاعتداد وهو يفكر في أخيه الأصغر، لأن أخبار المجاعة التي اجتاحت البلاد حيث يوجد قد وصلتهم. كما وصلهم خبر إفلاسه وعمله في ضيعة خنازير. وتضاحك الأخ الأكبر في نفسه قائلاً: فليتحمل إذن عاقبة فعلته الشنيعة.

وذات يوم قائظ جلس الابن الأصغر تحت هيكل شجرة أتى عليها الجفاف. كان العطش الذي يحرق جوفه يعادل في حدته آلام الجوع التي كانت تمزق كالسكاكين بطنه. كما زادت الأسمال الرثة التي كان يرتديها من شعوره المتعاظم بالمهانة. فكَرِهَ الحياة وأحس بسقوطه في شرك عاره. وابتدأ يعيد النظر في غيبته الطويلة عن موطنه، ويفكر مليا في تجرُّع خزيه والعودة إلى بيت أبيه.

فكر أن أقل العمال شأنا في ضيعة أبيه كان أفضل حالا مما هو عليه من حيث المأكل والملبس. لذلك قرر أن يعود ويطلب من أبيه السماح له بالعمل في ضيعته كأحد عماله المأجورين، لأنه لم يعد جديرا أن يدعى ابنا له. وكان أمله كبيرا أن يوافق أبوه. لقد أدرك شناعة الأخطاء التي ارتكبها في حقه، والآلام التي سببها له بسلوكه ذلك! عندئذ ذهب إلى الرجل الذي يعمل عنده وأخبره بقرار مغادرته، ثم رحل.

كانت الرحلة طويلة وشاقة، لأنه كان يسافر مشيا على الأقدام. كما كان يقتصد اقتصادا في تناول الزاد الذي معه. فلا يستهلك إلا ما يكفي لسد رمقه وبقائه على قيد الحياة. فتضافر الجوع والعطش ووعثاء الطريق لتجعل من رحلته فصلا آخر في جحيم العار الذي كان يثقله.

لاحت أخيراً ضيعة أهله. فتقدم نحوها يجر رجليه جَرًّا لأن سرعة مشيه تباطأت كثيرا بسبب الإعياء من جهة وبسبب الخوف من ردود الفعل التي كانت بانتظاره من جهة أخرى. كان يراجع بينه وبين نفسه كلاما أعده كي يقوله لأبيه: «لا أستحق بعد أن أدعى ابناً لك؟ اجعلني كواحد من خدامك المأجورين !«فجأةً أبصر شيئاً جعله يتسمر مذهولا في مكانه. كان أبوه يركض نحوه فاتحا ذراعيه شوقا لضمه إلى صدره وتقبيله. فتعجب الابن غاية العجب. وأدرك أن الأمر عكس ما توقع تماما. لقد جعل الحب العظيم الأب ينسى نفسه ويركض كالطفل نحو ابنه، إذ كان المسكين حتما لشدة شوقه ينتظر بفارغ الصبر رجوعه ويراقب الطريق طيلة فترة غيابه، و إلا كيف عرف أنه قادم؟ فاستجمع الابن قواه المتبقية كذلك وركض بدوره لملاقاة أبيه. وهكذا التقى الاثنان في لحظة عناق نادرة أجهش الأب الحنون خلالها بالبكاء من شدة الفرح بعودة ابنه حيا من رحلة الغياب.

ابتدأ الشاب في قول الكلام الذي أكده: «يا أبي أخطأت إلى السماء وأمامك، ولا أستحق بعد أن أدعي ابنا لك...«ولم يتسَنَّ له أبدا النطق بالجزء الأخير الذي يقول فيه: «اجعلني كواحد من خدامك المأجورين «فأبوه الذي كان بعض خدمه يسيرون وراءه قاطعه مخاطباً أولئك: «أحضروا سريعا أفضل ثوب وألبسوه، ضعوا في إصبعه خاتما وفي قدميه حذاء، وأحضروا العجل المسمن واذبحوه. ولنأكل ونفرح. فإن ابني هذا كان ميتًا فعاش، وكان ضائعا فَوُجِدَ.»

وهكذا ابتدأ الحفل. كان الأب وبجانبه ابنه والكثير من الجيران يتحدثون بفرح عن عودة الابن من ضلاله القديم. ولم يكن الأخ الأكبر قد عاد بعد. لكنه في طريق عودته من عمله الدءوب في الحقول، توقف وسأل أحد الخدم عن سبب الاحتفال الذي كان مقاماً في المنزل. فأجابه أن أخاه الأصغر قد عاد وأن أباه أمر بذبح العجل المُسَمَّن احتفالا بعودته سالما.

فغضب الأخ ورفض أن يدخل. ولما أخبر الخدم الأب بذلك تنهد ووقف. ومن جديد جعله حبه الأبوي يتنازل عن كبريائه ويخرج في طلب ابنه الأكبر الذي كان يخيل إليه أنه يسلك باستقامة. فاستعطفه وتوسل إليه أن يدخل لكن دون جدوى، بل قال له غاضبا: «انظر ! ها أنا أخدمك هذه السنين العديدة، ولم أخالف لك أمرا، ولكنك لم تعطني ولو جديا واحدا لأفرح مع أصدقائي. ولكن لما عاد ابنك هذا الذي أكل مالك مع الفاجرات، ذبحت له العجل المسمن« !

أتضح من ذلك الكلام أن الأخ الأكبر لم يكن أبداً يعمل مع أبيه بدافع من الرغبة في العمل معه، وكان بغضه لأخيه أشد وضوحا إذ أشار إليه بقوله «ابنك هذا «عوض أن يناديه أخاه.

وبينما الحشد المجتمع يتفرق في غبش المساء بعد أن ختم عيسى حكايته، بدأ إيلي يتحدث عن تلك القصة: «يبدو لي أن الأخ الأكبر يشبه كثيراً رجال الدين الذين يحاولون أن يفعلوا ما أمر الله دون أن تكون لديهم الرغبة الحقيقية في ذلك. إنهم يخدمون الله فقط لأنهم يفكرون باستمرار في الجزاء الذي ينالونه على خدمتهم
.»
ـ «معك حق يا إيلي. فإذا تفرست في وجوه من يسميهم رجال الدين "خطاة«ستقرأ فيها جوعا روحيا ورغبة عميقة في إرضاء الله تعالى. إنهم يعرفون أنهم خطاة مثلما أعرف أنا أنني خاطئ ! ألم تلاحظ تلك الصورة الرائعة التي سردها عيسى في حكايته، والتي تجسد محبة الله العظيمة لنا: «الأب راكضا بذارعين مفتوحتين نحو ابنه«
ـــ «هل تعلم يا سمعان أن عيسى سرد حكاية أخرى مشابهة عن رجل دين وأحد الخطاة. فقد ذهب الاثنان يصليان في الهيكل. فوقف رجل الدين يصلي شاكرا الله على أنه لم يكن مثل ذلك الخاطئ ثم ذكر الأعمال الصالحة التي يقوم بها عادة. أما الرجل الخاطئ فقال ببساطة: «يا أله ارحمني، أنا الخاطئ». قال عيسى أن الثاني، أي الخاطئ، قُبِلَت صلاته. أما الأول فَلا. ويبدو أن المعلم أراد أن يقول من خلال هذه الحكاية الثانية أن الله لا يقبل دائما صلاة أولئك الذين يعملون حسب الشريعة، بل يفضل عليهم أولئك الذين قلوبهم صالحة« .

في طريق آخر يعرج جنوبا نحو مدينة القدس كان نيقوديموس وصديقه يوسف يتفكران بعمق في حكاية الابن الضال. فقد أصابت صورة الأخ الأكبر قلبيهما في العمق، إذ أدركا أنها تعكس بصدق أسلوب خدمتهما. طاعة الرب دون فرح عفوي فيه. كان الصمت يخيم عليهما في غالب الأحيان وهما يعانيان في داخلهما الصراع بين الشريعة كما تعلمانِها منذ الصغر، وبين الحقائق التي يصدع بها هذا المعلم الشاب. وكانا في قراره نفسهما يرغبان بصدق شديد في الإيمان بالحب الذي أبداه الأب نحو ابنه الأصغر. فقد أدركا بوضوح شديد بعد تلك الحكاية أن العلاقة التي تربطهما بالله لحد ذلك الوقت علاقة باردة لا حرارة فيها، بينما أخبر عيسى أن محبة الله نحو عباده عظيمة لا تقاس.

# شريعة الموت

بدأ الضغط يتصاعد وسط رجال الدين، لأن عيسى كان يلقن الناس أشياء لا تتفق وفهمهم للشريعة، وكان بذلك يفوض دعائم سلطتهم ومركزيَّتَهم في المجتمع. لكن نيقوديموس ويوسف كانا يلتزمان الصمت داخل المجمع كلما هاجم زملائهم المعلم الشابَّ، كانا يخافان مما قد يظنه الآخرون بهما إذا هما أفصحا عن إيمانهما، وجهرا بالقول أن تعليم عيسى يتفق تماماً مع ما قرآه عن مسيح الله القادم.

غالبا ما كان يذكران، عندما يكونان وحدهما، قصة الفرعون وقلبه الشديد القساوة. فقد رأى قدرة الله التي أجراها من خلال نبيه موسى، لكنه رفض أن يطيع أمره، واليوم هاهم رجال الدين

يرون آيات أعظم، ويرفضون أن يكسروا أقفال قلوبهم الصدئة ويفتحوا أبوابها للضوء والهواء. كانوا يحاولون أن يحدوا لكل آية تفسيراً عقلانيا رافضين تماماً إمكانية أن يكون عيسى هو المسيح الموعود، فكانت عقلانيتهم المفرطة ورفضهم الآيات حاجزا دون إدراكهم عظمة الملكوت الذي كان ينمو وإن ببطء في قلب زميليهم نيقوديموس ويوسف.

وإذ تعاظم خوف رجال الدين يوما بعد يوم على مركزهم من السلطة المتنامية لهذا المعلم، بدأوا يخططون لقتله والاستراحة من تعبه. فأصبح كل لقاء معه مناسبة لاقتناصه وإدانته بواسطة الشريعة.

هكذا بات حتى المواطنون العاديين واعين جدًّا بالصراع المتنامي بين عيسى ورجال الدين، والذي كان يهيمن بشبحه على كل لقاء يجمع الطرفين. كما أن الشيوخ نصحوهم بعدم الاستماع إلى المعلم الشاب. لكن أتباع هذا الأخير ما فتئوا بالرغم من كل ذلك يتكاثرون يوما عن يوم، لأن الناس كانوا متعطشين إلى الماء الروحي والسلام مع الرب، وكانت تعاليم عيسى تملأهم أملا وتحررهم من الخوف بشكل لم يسبق أن لمسوه مع معلم آخر من قبل.

وفي أحد أيام السبت المقدسة كان يوسف وسط الجماعة التي كانت تمشي وراء المعلم. فلاحظ أن بعض أتباعه يقطفون السنابل من الحقول الموجودة على طول الطريق، ويفركون حباتها بأيديهم ثم يأكلونها. فتذمر بعض زملاء يوسف إلى عيسى وسألوه لِمَ لَمْ يَنْهَ أتباعه عن انتهاك الشريعة. فأجابهم بإثارة انتباههم فقط إلى إحدى الحالات التي قرأوا عنها كثيرا في الكتاب، والتي لم يسبق أن أدانها أحد، حيث قال: «أما قرأتم ما فعله داود حينما جاع مع مرافقيه؟ كيف دخل بيت الله وأخذ خبز التقدمة وأكل منه، وأعطى مرافقيه. مع أن الأكل من هذا الخبز لا يحل إلا للكهنة وحدهم؟» ثم قال لهم: «إن ابن الإنسان هو رب السبت»

أدرك يوسف أن ذلك سوف يُسَبِّبُ مشاكل أكثر، فقد بات أخيراً يؤمن أن الله غير مَعْنِيٍّ حَدَّ الهَوَس بتطبيق الشرائع بالشكل الذي يصوره رجال الدين. فَهؤلاء عاثوا في الشريعة تأويلا حتى أصبح السبت عبئاً ثقيلا بدل أن يكون نعمة وبركة كما أراد الله له. كما صوروا الله جل جلاله مثل حاكم ذي ملامح صارمة يتكلم عن الرحمة دون أن يكون هو نفسه رحيما. ومثلما يحدث عادة انطبعت هذه الصورة على قلوبهم حتى صاروا شبهها تماما يتكلمون باستمرار عن الرحمة، بينما يعاملون الخطاة بقساوة قلب شديدة.

ضحك يوسف في صمت وهو يفكر كيف أن عيسى أعاد كيد رجال الدين في نحورهم، إذ أفحمهم بحسب قواعد لعبتهم. لقد أخذ مثالا من الكتاب يبين أن الله لم يدن داود على ما فعل، فلم يجدوا جوابا وذهبوا دون أن ينبسوا بكلمة. ومثل هذه الخيبة تزايدت ساعة بعد ساعة إذ لم يستطيعوا أن يقتنصوه في شيء أبدا. فقد كان عقله الوقاد لا يفتأ يواجههم بالثغرة تلو الأخرى داخل النظام الذين كانوا يقدسون صرامته، والذي لم يكن سوى صرح عَالٍ أقاموه لكي يحل محل أية علاقة حية وحقيقية مع الخالق.

بعد أيام من تلك الواقعة صادف أن كان سمعان ذات سبت في المجمع ينتظر المعلم. وإذ دخل هذا الأخير رنا إليه الحاضرون جميعا. وكان بينهم رجل بيد يابسة ينتظره أيضا كي يشفيه. كان الموقف فرصة ذهبية لرجال الدين الذين باتوا يترقبون بمكر ما سيفعله عيسى. هل يشفي في السبت فيأخذوه بفعلته؟

طلب عيسى من الرجل أن يقف في الوسط أمام الجميع ثم قال مخاطبا الحضور: «أيحل في السبت فعل الخير أم فعل الشر؟ تخليص النفس أو إهلاكها !»

فران صمت رهيب على الجميع، وأسقِطَ في يد رجال الدين الذين أدركوا توبيخ عيسى لهم، إذ اتهمهم بالتصلب والقساوة لكونهم لم يبدوا اهتماما بمعاناة ذلك المشلول.

ثم قال عيسى للرجل «مد يدك «وللتو مد يده فعادت صحيحة تماما. لكن حقد رجال الدين زاد تأججا عليه بسبب ذلك. فبدأوا يخططون بدقة أكثر ويتحالفون مع أعدائهم من أصحاب السياسة عَلَّهم يجدون طريقة للقضاء عليه. كانوا يتوفرون على شريعة قوية ورهيبة، وكان على عيسى أن يموت بمقتضاها موتا.

تعجب سمعان: «يا له من أمر غريب حقا أن يتضايق هؤلاء المعلمون الأفذاذ من خلاص رجل طالما عانى بسبب يده المشلولة. ويصل بهم ذلك الاستياء إلى درجة كراهية المخلِّص، وتمني قتله. إنهم يحسبون ما فعله عملا. لكن ماذا فعل في الحقيقة. لقد طلب فقط من الرجل أن يمد يده. وهم يفعلون يوم السبت أكثر من ذلك حين يجلسون للطعام ويمدون أيديهم لتناول الخبز.»

كان هو وغيره من البسطاء لا يملون أبداً من سماع المعلم. فقد حمل لهم عزاء كبيرا حين كلمهم عن محبة الله العظيمة اتجاه خلقه، وعن الحياة الغنية في الملكوت. كما أتضح أن رجال الدين متمسكون بالشريعة لأنها وسيلتهم إلى السلطة والمزيد من الربح المادي. وهذا المعلم الشاب لا يملك حتى سقف واحد يؤويه.

في ذلك اليوم شعر سمعان حقا أن الله أعطاه قلبا نقيا. إذ عوض أن يشعر أنه يخدم الله خوفاً ورهَباً كما دأب أن يفعل، صار يشعر أنه يخدمه حُبًّا ورغبةً وفرحاً فيه سبحانه. ويا للفرق ! لقد جثا بانكسار شديد عند قدمي الرب ملتمساً التوبة، وبدا أنه تعالى تقبل منه وأعطاه هذا القلب الطاهر الجديد. فقد ماتت أخيراً شريعة الموت، وعمت البشرى بميلاد ملكوت الحياة.

# البداية الجديدة

وقف الشيخ في مؤخرة الجمهور وهو يعرف أن هيئته حتى في ذلك المكان تشي بكونه رجل دين مبجل. لم يشأ أن يقف في المقدمة لأنَّ الأمر محفوف بمخاطر كثيرة حتى لو كان لا يتعدى الإنصات قليلا إلى هذا المعلم الشاب صاحب الآيات التي سمع عنها كثيرا.

لقد أراد هذا الشيخُ الذي اسمه نيقوديموس، الذي كان معلما أيضا، أن يعرف أكثر بخصوص ذلك الشاب العجيب. كان يعلم في قرارة نفسه أن هذا المسمى عيسى ليس رجلا عاديا، فقد صنع

معجزات تضاهي أعظم المعجزات التي صنعها أنبياء الله من قبله، إذ جعل العُمْي يبصرون، والصم يسمعون، والمشلولين يقومون ويمشون، والمسكونين بالشياطين يتحررون. ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بسلطان من الله. لكن طريقة تعليم هذا الشاب كانت تخالف طريقة تعليمه هو وباقي المعلمين الآخرين. فعوض التلقين الصارم للشرائع، كان لا يفتر عن تأكيد شيء آخر يتلخص في الحديث عن ملكوت الله وتجديد العلاقة التي كانت قائمة بين الله والإنسان قبل عصيان آدم. وللحظة شعر نيقوديموس بصواب هذه الفكرة. فقد عمل جهده كي يطبق تعاليم الشريعة طيلة حياته: يصوم حين يلزم الصيام، ويصلي حين تلزم الصلاة، ويتصدق على المحتاجين، ويشارك في كافَّة الاحتفالات الدينية التي تقام في مدينة القدس، لكنه كان يعرف أن طاعته تلك غير كافية. وكلما تقدم في السن زاد وثوقا بتلك الفكرة. فتطبيق الشريعة لا يكفي بتاتا لنيل مرضات القداسة الإلهية.

هل يُسَاوي كل ذلك شيئا؟ هل لبشر أن يقف طاهر السريرة تماما أمام الله؟ فلو فعل كل ما يطلبه الله منه، وأهمل شيئا واحدا بسيطا لاعتُبر مذنبا. ثم إن الشريعة تطلب منا القيام بالإعمال الصالحة حتى لا نقف مدينين أكثر أمام الرب بارتكاب خطايا أخرى، إذ أن رصيدنا مديون على الدوام وشكل مسبق. والسؤال هو كيف يمكن أن يصبح رصيدنا ممتلئا خلواً من كُلِّ دَيْن.

كان نيقوديموس يشعر أن عمره يمر بسرعة وأنه بحاجة إلى أن يرضي الرب كثيراً. فتمنى لو تتاح له فرصة صغيرة فقط كي يجلس مع ذلك المعلم الشاب. لكن أنَّى له ذلك وعيون زملائه مفتوحة على الدوام، إذ لو شوهد معه لأدين بتهمة التحدث إليه. ففكر لحظة في زيارته ليلاً حتى لا يراه أحدٌ. لكن عليه أن يهيئ جيدا لتلك الزيارة وأن ينتبه وينتظر الوقت المناسب.

بعد أيام قليلة بدا أن فرصة الزيارة سنحت له أخيراً، فقد سمع أن عيسى مقيم في منزل أحد أصدقائه خارج مدينة القدس. فقرر الذهاب إلى هناك ليلا وقضاء بعض الوقت معه، ثم العودة إلى المدينة. كان الأمر يبدو متعبا بالنظر إلى سنه، لكنه كان يستحق التضحية أيضا. هكذا تسلل ليلا خارج المدينة وانحدر عبر وادي قدرون حاملا مصباحه الذي كان يتأرجح في يده، ويرسل بسبب ذلك ضوءاً خافتا مرتعشا. كان عليه أن يسير حوالي أربع كيلومترات حتى يصل إلى المنزل الذي يقيم فيه المعلم.

وكم كان خائفا أن ينال منه التعب ولا يستطيع الاستمرار في طريقه. لكن مخاوفه سرعان ما كان يبددها توقع متعة ذلك اللقاء العجيب.

بعد حوالي ساعة وصل إلى القرية. ومع أن الطريق عبر جبل الزيتون كانت شديدة الانحدار، إلاَّ أنها لم تبد له بذلك السوء الذي توقعه. لقد اكتشف أن الوقت مر سريعا جدا وهو يفكر فيما سمعه من قبل، ويقارنه بكلام الله الذي يحفظه. طرق باب المنزل فسمع وقع خطوات بطيئة تتجه صوبه. ثم بعد قليل انفتح مواربا، وأطل منه وجه امرأة مسنة سألته من يكون وماذا يريد.

فأجاب ببساطة: «أريد أن أرى المعلم.»عندئذ فتحت المرأة الباب على سعته وقادته عبر دهليز أفضى بهما إلى فناء واسع. هنالك شاهد جماعة من الناس محيطين بالمعلم الشاب الذي كان يحدثهم عن أبيه السماوي. كان يحفهم سلام هادئ وهم يتفكرون فيما يقوله لهم.

استدار عيسى نحو نيقوديموس عندما صار قريبا منه. ووقف إجلالا لهذا الرجل المسن الذي كان يبدو أنه قادم من مكان بعيد كي يراه. وحين علم أنه جاء كي يتحدث إليه في أمر خاص قاده إلى علية في السطح، وهناك قدمت لهما المرأة شرابا منعشا وجلسا يتحدثان.

لم يبدأ نيقوديموس بالكلام في العموميات كما هي عادة قومه الذين يأخذون وقتا في الحديث قبل أن يدخلوا في صلب الموضوع. كانت رغبته في سماع هذا المعلم الشاب أكبر من أن يضَيِّع وقته في تلك الشكليات الفارغة.

فبادره بالقول: «يا عيسى، نعلم أنك جئت من الله معلماً، لأنه لا يقدر أحد أن يعمل ما تعمل من آيات دون أن يكون الله معه« .

لم ينتظر عيسى سماع المزيد، لأنه نفذ إلى دخيلة نفسه، ولمس توقه الذي يتقد في أعماق أعماقه فقال له: «الحق الحق أقول لك، لا أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله إلاَّ إذا ولد من جديد»

فتعجب نيقوديموس من كلامه ذلك وفكر في نفسه «يا للغرابة ! ماذا يعني بقوله ذلك؟ ولماذا رَدَّ علي بذلك الكلام؟ وفي الحقيقة كم أتمنى لو أولد ثانية وأبدأ حياتي من جديد« .

ولكي يتأكد مما عناه عيسى سأله: «كيف يمكن للإنسان أن يولد وقد صار كبير السن؟ ألعله يستطيع أن يدخل بطن أمه ثانية ثم يولد« .

فأجابه عيسى «الحق الحق أقول لك: لا يمكن أن يدخل أحد ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح. فالمولود من الجسد هو جسد، والمولود من الروح هو روح. فلا تتعجب إذا قلت لك إنكم بحاجة إلى الولادة من جديد. الريح تهب حيث تشاء وتسمع صفيرها. ولكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح.»

لم يستطع نيقوديموس أن يفهم بسهولة ما قاله عيسى، وتساءل عن معنى الولادة من الروح، ثم بدا له أن عيسى ربما أراد أن يُلْمِح إلى حاجة الإنسان لتجديد روحه حتى يصبح خلقا جديداً ذا وعي وشعور جديدين في علاقته مع الله تعالى. أو ربما تعلق الأمر بقوة جديدة يستطيع الإنسان من خلالها تطبيق وصايا الرب.

لكن عيسى أضاف قائلا: «وكما علّق موسى الحية في البرية، فكذلك لابُدَّ من أن يعلَّق ابن الإنسان، لتكون الحياة الأبدية لكل من يؤمن به.«فتذكر نيقوديموس الشفاء العظيم الذي وهبه الله لموسى عندما هجمت الحيات على الشعب وسط الصحراء. وتذكر أن ذلك الشفاء إنما تم بفضل الإيمان لأنه كان قبل كل شيء شفاء في الروح.

ثم راح يتساءل: «لكن ماذا عنى بقوله أن ابن الإنسان سوف يعلَّق؟ حتما لم يكن يقصد نفسه. وإذن ماذا كان يقصد؟«وانتابته رغبة شديدة في معرفة المزيد، وبينما هو يسير ببطء في طريق عودته إلى مدينة القدس كان يحس بمزيج من الحيرة والفرح العظيم في نفس الآن. لقد أخبره المعلم الشاب أن كل من يؤمن به تكون له حياة أبدية. وتلك كانت في العمق رغبته. لذلك فكر أن ينتهز الفرصة ليرى عيسى مرة أخرى. لكن متى؟ متى؟

# قوام المملكة

في اليوم التالي عندما استيقظ نيقوديموس من نومه رغب في البحث عن أحد أصدقائه الخلصاء كي يحدثه عن تلك الليلة، ففكر في صديقه يوسف من مدينة الرامة التي تبعد حوالي 30 كيلومترا شمال غرب مدينة القدس. وقد كان يوسف أحد شيوخ الشعب الأجِلاَّء مثل نيقوديموس، ومثله أيضا كان يتطلع بشوق إلى ملكوت الرب.

أخبر نيقوديموس يوسف بكل ما حدث، ثم سأله عن رأيه. فأخبره هو الآخر بكل ما كان قد رأى وسمع قبل مدة بخصوص المعلم الشاب: «سمعت بعيسى هذا، فأحببت أن أراه وأسمع منه مباشرة. فقصدت إلى حيث كان يعلم ويصنع الآيات، وهناك شاهدت حشود الناس تتجمع على ضفاف نهر الأردُنّ شيئا فشيئا منتظرة مجيء المعلم. جاؤوا من كل فج من فجاج فلسطين وعبر الأردن متحملين عناء السفر ربما لأيام قصد سماع ذلك الرجل. كان منهم مرضى ومشلولون ومسكونين بأرواح ومعذبون بأوجاع، وكان يشفيهم جميعا.

وعندما وصل ورأى جموع الناس صعد إلى مكان فوق الجبل وبدأ يعلم أتباعه الذين تجمعوا تحته. فسرت وراءهم لأسمع ما كان يقوله. كان شيئا لا يصدق يا نيقوديموس. تصور كان يقول أنه لا ينبغي أن نصلي أو نصوم أو نتصدق أمام الناس لأننا إنمَّا نفعل ذلك بقصد أن يروا ويمدحوننا. كما كان يقول لأتباعه أن برَّهم يجب أن يزيد على برِّ رجال الدين، وأنهم يجب أن يكونوا كاملين كما أبوهم السماوي كامل. وكلها أمور بدت لي مستحيلة.

لكن أعرف أنه على صواب. فنحن نتوفر على قدر معين من البرِّ، ولكنه ليس قدرا كافيا، لأننا إذا أردنا أن نرضي الله فعلينا أن نكون كاملين مثلما هو تعالى كامل« .

» نعم يا يوسف، قداسة الله لا تحد. لكن السؤال هو كيف نصل إلى درجة البر التي ترضي الله، أعرف أنني أتوفر على قدر من القداسة لا يكفي بتاتا، والله يشهد أنني أجتهد قدر المستطاع لفعل الخير، لكنني أفشل في ذلك طوال الوقت، فلا أستطيع أن أفعل دائما الأشياء الصالحة التي أرغب في فعلها، حيث أجد نفسي مراراً منقادا نحو ارتكاب الأفعال المشينة التي لا أرغب فيها« .
ـــ «السؤال، كما قلت يا نيقوديموس، هو كيف؟ كيف نصبح أكثر براً مما نحن عليه؟«
ـــ «أتساءل يا يوسف إن لم يكن الجواب يكمن في تلك العبارة: «ينبغي أن تولد من جديد «إذ يبدو أن عيسى أراد أن يقول أن الإنسان إذا لم يبدأ بداية جديدة تماما، فيكون له قلب وسلوك جديدان كل الجدة، فلن يستطيع إرضاء الله تعالى.
تذكَّرْ قول ذي الكفل (حزقيال) أن الله وعد أن يهب شعبه قلبا وروحا نقيين، فيمنحهم ذلك ليس الرغبة فقط بل القدرة أيضا على العمل حسب مشيئته، بحيث لن يعودوا محتاجين بعد ذلك إلى مجموعة

شرائع ترشدهم إذا ضلوا السبيل، بل ستصبح شريعة الرب منقوشة في قلوبهم. بمعنى أنهم سوف يرغبون بشكل عفوي في السلوك حسب إرادته« .
ـــ «صدقت يا نيقوديموس، هذا ما نحتاج حقًّا إليه، وهذا هو السبيل إلى بر أعظم يرضي قداسة الرب. تَعْرِف أن عيسى عندما تكلم فوق الجبل لم يفتأ يرفع المقياس أبعد من وصايا موسى، حيث قال أن الإنسان إذا غضب عَلَى أحد فكأنه ارتكب جريمة قتل ضده، وإذا نظر إلى امرأة بقصد أن يشتهيها، فقد زنى بها، وإذا طلق زوجته وتزوج غيرها فقد ارتكب الزنا أيضاً. إن معيار البرِّ لديه أعلى بكثير من شريعة موسى.»
ـــ «ماذا قال كذلك؟«
ـــ «قال أنه إذا لطمك أحد على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر كذلك، أي لا تدافع عن نفسك بل تترك الأمر لله تعالى "
»مستحيل يا يوسف على أحد تطبيق ذلك دون أن يكون روح الله حيا بداخله« .
»صدقْتَ ! كما قال شيئا آخر أقلق كثيرا زملاءنا أعضاء المجمع. قال أنه لا ينبغي أن نكنز لنا كنوزا على الأرض. وأنت تعلم أن الكثير من بيننا بلغوا قدرا كبيراً من الثراء. فنحن رجال الدين وشيوخ الشعب لا نفعل أشياء كثيرة ضد الشريعة، لكننا نحب أن نمتلك المال. وعيسى على حق إذ يقول أن المال مجلبة للمتاعب، لأنه يسبب الكثير من القلق والخوف والجشع وغير ذلك.»
»أو ليس غريبا يا يوسف أن نسعى في سبيل سعادتنا وراء الأشياء التي يسعى وراءها عبدة الأوثان أيضا، بينما وحده الله قادر أن يملأنا سعادة« .
»نعم يا نيقوديموس، والأغرب من ذلك أن نسعى لنيل البر بنفس الطريقة التي يسعى له بها في العمق أولئك الوثنيون، حيث نحفظ الشريعة مثلما هم يحفظون شريعتهم، فنصلي ونصوم ونتصدق وهكذا هم أيضاً يفعلون. وكل ذلك لا يبدو لي براً حقيقياً "
»معك حق يا يوسف، نحن بحاجة إلى قلب نقي وروح نقية كما أعلن ذو الكفل. وقد بدأت الآن أفهم ما عناه عيسى حين تحدث عن الولادة الجديدة. فعندما نولد في الروح من جديد تصبح قلوبنا وأنفسنا طاهرة تماما. وهذا وحده ضمان برِّنا الحقيقي« .
»هل تعني يا نيقوديموس أن القلب الجديد والروح النقية يجعلاننا نحفظ الشريعة كما ينبغي« .
ـــ «لا يا يوسف. ما أعنيه هو أن القلب الجديد والروح النقية هما ما يرضي الله تعالى. إذ بهما نصبح من جديد أسرة واحدة ويجتمع شملنا مع أبينا السماوي. وهكذا نعمل بعفوية نابعة من القلب مشيئته.فليس البر أن نحفظ الوصايا ولكن أن نكون راغبين في ذلك بقصد تمجيده.»
ـــ «نحن بحاجة إلى سماع المزيد لكي نفهم بشكل أعمق الأشياء التي يتحدث عنها« .
ـــ «نعم يا يوسف. ولكنني منزعج مما قد يظنه أعضاء المجمع الآخرون إذا شاهدونا معه«
ـــ «ألا ترى بنفسك أن البعض من أعضاء المجمع يحضرون باستمرار حلقاته. ثم يا نيقوديموس لا ينبغي أن تقلق كثيراً مما قد يفكر به الآخرون، الأحرى أن نقلق أكثر مما يظنه الله سبحانه بنا، لأننا إذا وضعنا الآخرين نصب أعيننا فلن نكون أبدا كاملين مثل أبينا السماوي« .
ـــ «معك حق يا يوسف. علينا أن نلتمس الشجاعة من الله كي نتبع ما يقوله عيسى. إذ يبدو أنه من عند الله وأنه اليقين الحق الذي لا مراء فيه« .

# إحياء ميّت

ذات يوم وقع حزن كبير في أحد المنازل التي كان عيسى يتردد عليها كثيرا. فقد أصيب لعازر صديقه بحمى شديدة، وعملت أختاه مرثا ومريم جهدهما ليخففا عنه من حدتها، لكن دون جدوى. فأرسلتا إلى عيسى الذي كان في وادي الأردن تقولان له أن لعازر مريض. إذ كانتا تذكران شفاءه بكلمة واحدة لخادم قائد المئة الذي لم تكن له بتاتا أية علاقة به. لكن بعد فترة من مغادرة الرسول، ارتفعت حُمَّى لعازر ومات.

فخيمت كآبة شديدة على الأختيْن، وجثم على صدرهما همّ وخوف ثقيلان. لقد رحل «حارسهما «ومعيلهما، وبقيتا وحيدتين. فلماذا لم يبلغ خبر مرضه عيسى قبل أن تشتد عليه الحمى لكي يتداركه؟ ولماذا لم يأت حتى ذلك الوقت؟

عندما وصل الرسول المكان الذي كان عيسى يعلم فيه، أخبره بمرض لعازر، فلم تبد عليه علامات الدهشة. قال فقط عندما سمع الخبر: «لن ينتهي هذا المرض بالموت، بل سيؤدي إلى تمجيد الله «ورغم أنه كان يحب لعازر وأخته مرثا ومريم، فقد مكث حيث كان يومين آخريْن. لم يَبْدُ عَلَى عجلة من أمره لأنه كان يعلم مسبقا ما كان الرب يهدف إليه من خلال ذلك المرض.

ثم بعد ذلك قال لحوارييه: «لنرجع إلى اليهودية «فدهشوا لقراره لأنهم يعرفون أن شيوخ اليهود حاولوا رجمه منذ مدة قصيرة هنالك. وحين سألوه في الأمر قال ببساطة: «لعازر حبيبنا قد نام، ولكنني سأذهب لأوقظهُ».

فكر الحواريون أن لعازر إذا كان قد نام فمعناه أن حالته سوف تتحسن لأن ذلك ما كان يحدث عادة، لكن عيسى أوضح الأمر أكثر قائلا: «لعازر قد مات، ولأجلكم أنا أفرح بأني لم أكن هناك، حتى تؤمنوا. فلنذهب إليه !«لقد عرف عيسى بموت لعازر رغم المسافة البعيدة التي تفصله عن مكان موته. كما عرف ما كان عليه أن يفعله، وما كان سيتحقق من مجد للرب بسبب ذلك.

عندما وصل عيسى قرية لعازر، كان قد مضى على موت هذا الأخير أربعة أيام، فلما عرفت مرثا أخت لعازر أن عيسى قادم خرجت للقاؤه. لكن مريم مكثت في المنزل. وبمجرد أن وقعت عيناها عليه صاحت: «لو كنت هنا، لما مات أخي. فأنا واثقة تماما بأن الله يعطيك كل ما تطلب منه« .

فأجابها «سيقوم أخوك«

فقالت مرثا «أعرف أنه سيقوم في القيامة، في اليوم الأخير «فرد عيسى «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي، وإن مات سيحيا. ومن كان حيا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد، أتؤمنين بهذا؟«فأجابته «نعم يا سيد.»

لا نعرف إن كانت فهمت بالكامل ما عناه، لأن عيسى لم يكن يعني طبعا أن من آمن به لا يموت جسديا، بل لا تموت روحه إلى الأبد. كان يشير فقط إلى الحدث الذي وقع في الفردوس عندما عصى آدم الله فماتت روحه.

ذهبت مرثا لتدعو أختها مريم وتخبرها أن المعلم يطلبها. وعندما جاءت إليه، قالت له هي الأخرى أنه لو كان هناك لما مات أخوها. لكن عيسى عندما رآها تبكي بحرقة ويبكي معها الذين رافقوها اعتصر قلبَه أسى عظيم، فسأل «أين دفنتموه؟»فأجابوا «تعال وانظر، يا سيد.» ثم بكى عيسى بحرقة أيضا. فلمس الحاضرون مقدار شفقته العميقة. كان يبكي حزنا على الألم الذي سببه الموت للبشرية. وأيضا غضبا على ما فعله الشيطان حتى استحق الإنسان الموت. وإذ لاحظ اليهود محبة عيسى الكبيرة لِلعازر تساءل بعضهم كيف لم يستطع صانع الآيات هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يمنع الموت عن صديقه.

شعر عيسى بروحه تفيض حزنا وهو يقترب من المكان الذي دفنوا فيه لعازر. ولكم أحس هنالك بكراهية شديدة للموت الذي جلب كل هذه الآلام على البشر. ثم حين وصل إلى القبر الذي كان عبارة عن كهف على بابه حجر كبير، أمرهم أن يزيحوا الحجر. فاعترضت مرثا قائلة «يا سيد، هذا يومه الرابع، وقد أنتن». فقال لها عيسى «ألم أقل لك: إن آمنت ترين مجد الله؟» أزاح أحدهم الحجر. فوقف الجميع يترقب في ذهول ما سوف يحدث. كان عيسى على وشك أن يكشف لهم مجد الله! فقد سمعوا أنه أقام شابًّا من الموت، ولكن لعازر مات منذ أربعة أيام ! فماذا تراه يفعل. رفع عيسى عينيه إلى السماء بالصلاة وقال ببساطة شديدة: «أيها الآب، أشكرك لأنك سمعت لي، وقد علمت أنك دوما تسمع لي. ولكني قلت هذا لأجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني.«ثم صاح «لعازر اخرج «وأمام دهشة الجميع المشبوبة بالفرح، ظهر لعازر فجأة على باب القبر ملفوفا بأكفانه، فطلب عيسى ممن حوله أن يحلُّوه.

إنه أمرٌ مدهش أن يكون لعيسى سلطة على الموت أيضا، لكن الأغرب من ذلك أن شيوخ اليهود المنشغلين بالشريعة والمركز رفضوا رغم ذلك الإيمان به. فقد أججت تلك الآية فقط غيرتهم الشديدة ورغبتهم في قتل المعلم، لأن الشريعة قَسَّتْ قلوبهم وأعمتها عن حقيقة عيسى التي لم تكن تلائم صورتهم الخاصة عن المسيح. كما خططوا لقتل لعازر أيضا لأنه كان بالنسبة لهم برهانا حيا على سلطة المعلم اتجاه الموت.

# المولود لأجل الموت

انصرمت أسابيع على ذلك الحدث وذهب سمعان لزيارة إيلي في بيت لحم، وهناك دار الحديث بينهما من جديد عن عيسى وما كان يحدث في فلسطين بسبب تعاليمه ومعجزاته. تحدثا مرة أخرى عن تلك الليلة البعيدة التي سمع فيها إيلي صوت الملاك وذهب صحبة أبيه وأخيه لمشاهدة عيسى عندما كان رضيعا، وكيف أن إسحاق والده تكلم مع يوسف زوج مريم الأم.

لقد أخبر يوسف إسحاق إذ ذاك أن الملاك أمره أن يسمي الوليد «عيسى »««لأنه سوف يخلص شعبه من خطاياهم.»ثم ذكَّرَ سمعان صديقه إيلي بكلام يحيى بن زكرياء الذي قال أن عيسى هو: «حمل الله الذي يزيل خطيئة العالم.» كانت عبارة «حمل الله «في ذلك الزمن في فلسطين تذكر الناس بالحملان التي كانت تُقَدَّم لتذبح تكفيرا عن الخطايا. لذلك فتسمية عيسى بحمل الله كانت في حد ذاتها إشارة إلى موته كقربان؛ بحيث يصبح ذلك الموت بداية حياة جديدة للبشرية. وتساءل سمعان وإيلي «كيف يتم ذلك؟ كيف لمسيح الرب، المخلِّص الموعود أن يموت هو الذي وعد الله بنصره؟.» ذلك أن سنوات عديدة من التفكير في اتجاه واحد جعلت من الصعب عليهما التفكير بشكل آخر. كما أن فكرة أن يسمح الله بعذاب نبيه الكريم كانت فكرة مختلفة جدا عما كان الجميع يتوقعه بخصوص المخلص القادم.

أمور كثيرة باتت تؤرقهما وهما يستعرضان أهم الأحداث المتعلقة بعيسى. أولا، كانت مريم عذراء عندما حبلت بعيسى. ثانيا، صدقت في عيسى نبوءات عديدة تتعلق بشخص المسيح القادم. ثالثا، الأقوال التي تتحدث عن حمله خطايا العالم والتي تشير إلى أنه هو عبد الرب المتألم الذي ذكره إشعياء. فقد كان عيسى يردد كثيرا أنه سوف يتألم، ويعلّق مثلما علّق موسى حيَّة النحاس، وأن من نظر إليه تكون له الحياة الأبدية كما كانت للذين نظروا إلى الحية النحاسية في البريَّة، فشفوا من لدغات الأفاعي. كان واضحا أن الملكوت الذي جاء يبشر به ليس من الأرض، بل هو ملكوت روحي لأنه قال «إن ملكوت الله بداخلكم.»

أما الصورة الشعبية التي رسمها الناس عَلَى مَرِّ قرون حول المسيح، فكانت غريبة عن تعاليمه. كانت تلك الصورة تربأ بمسيح الرب أن يتألم، وتظهره كفاتح يهزم الرومان الكَفَرَة، ويطهر منهم الأرض المقدسة ثم ينشر في أرجائها شريعة الله وسلامه. لذلك كان الجميع يتوقعون أن يُجدِّدَ المُخَلِّص مُلك داود بالمفهوم السياسي والعسكري.

لم يكن البسطاء وحدهم معنيين بما يجري حولهم. ففي المنزل الفخم الذي يملكه يوسف في مدينة القدس كان هذا الأخير يتحدث إلى نيقوديموس بصوت خافت عن عيسى. كان الصديقان يشعران بالذنب وهما يتحدثان عنه، ويشعران بالذنب أيضا عندما لا يفعلان. وبينما كان جميع زملائهما يهاجمان ذلك المعلم الجليلي، كانا هما يشعران بالانجذاب نحوه. لكن الشعور بالجبن كان يلاحقهما لعدم قدرتهما على الوقوف بجانبه، والجهر بما كانا يعتقدان أنه الحقيقة.

بالنسبة إليهما أيضا كانت هناك أسئلة عديدة تؤرقهما بخصوص الفرق بين الصورة التي كَوَّناها من قبل عن المسيح والصورة التي ظهر بها عيسى بينهم. وكان نيقوديموس يتذكر زيارته الليلية للمعلم «لقد قال أن كل من يؤمن به تكون له الحياة الأبدية. تأمل معي هذا القول يا يوسف. إذا صح ما يقوله فإننا سوف نحيا إلى الأبد، بمعنى أننا سنكون في علاقة مباشرة بالرب، معه في جنته كما أراد هو تعالى منذ البدء. لن نرهب لموت بعد، ولن نخشى ملكوت الظلام.»

ـــ «لكن، لِمَ نؤمن يا نيقوديموس؟ ماذا قصد بقوله أن كل من يؤمن بالابن تكون له الحياة الأبدية؟ بأي شكل من الأشكال نؤمن به؟«
ـــ «لا أعرف حقًّا، يا يوسف. لست أفهم. لقد عبَّر المعلم في تلك الليلة التي زرته فيها عما يشبه خيبة أمل لكوني معلماً للشعب أنا أيضا ولا أفهم قصده. عبر عن ذلك في معرض حديثه عن الولادة

الجديدة. أذكر أنه قال: «الحق الحق أقول لك لا يمكن أن يدخل أحد ملكوت الله إلا إذا وُلِدَ من الماء والروح. فالمولود من الجسد هو جسد، والمولود من الروح هو روح. فلا تتعجب إذا قلت لك أنكم بحاجة إلى الولادة من جديد.» أظن أنه حين تحدث عن ضرورة الولادة من الماء والروح. كان يعني التوبة وتجدد الروح. تعرف أن يحيى كان يحث الناس على التوبة التي كان يرمز لها بالتعمُّدِ غَطساً في الماء. وهذا الغطس في الماء كان يرمز بحد ذاته إلى الموت والعودة إلى الحياة. ثم لا تنس أن روح الله قادرة على بعث أرواحنا من جديد.»

ـــ «أرى في الأمر سخرية لاذعة إذا قَارَنَّا حديث عيسى عن الحياة الأبدية والولادة من الروح بما يضمره زملاؤنا من خطط لقتله دون إثارة مشاعر الشعب. أتساءل هل يمكن أن يحالف التوفيق مسعاهم، وأتساءل عن رد فعل عيسى إذا أحاطوا به، لأنني أرى أنه لا قِبَل له ببطشهم« .

ـــ «إن زملاءنا في المجمع حاقدون عليه جدا، وغاضبون بشأنه غضبا شديداً. ولقد سمعتهم أنت بنفسك يتهمونه بالكفر والتجديف. كما تعلم أنهم لم يكونوا ليتورعوا عن قتل أي شخص آخر غيره، إذ لولا شعبيته الكبيرة بين الجماهير لكانوا انتهَوْا من أمره. مع ذلك، فإنهم يا يوسف ما فتئوا يتحينون الفرصة للإيقاع والتنكيل به. أما بخصوص رد فعله وضعف حيلته أمام بطشهم فأنا أشاطرك الرأي تماما. تذكَّر نبوءة إشعياء التي تقول: «ظلم وأذل، ولكنه لم يفتح فاه، بل كشاة سيق إلى الذبح، وكنعجة صامته أمام جَازِّيها لم يفتح فاه.»

يمكننا القول أن صورة عيسى كمسيح للرب بدت مختلفة جِدًّا عما توقعه الأغنياء والبسطاء سواء. لكن بالنسبة لفئة ثالثة، الفئة التي شكل عيسى تهديدا مباشراً لمركزها وأسلوب حياتها، فإنها لم تجد من سبيل أمامها سوى قتله وإزاحة تهديده. لقد كرهوا بشدة تعليمه لأنه فضح خطاياهم وجلب عليهم الإحساس بالعار. لذلك فضلوا مثل النَعَام إخفاء رؤوسهم من وجه الحقيقة التي كان يصدع بها، والاحتماء من النعمة خلف شريعة الأعمال.

وصل الصراع منتهاه، لأن الأغنياء وذوي النفوذ لم يكونوا مستعدين للتخلي عن مواقعهم في المجتمع. فهم لم يحبوا أبداً هذا المعلم الذي بات يلقن الناس أن لا فرق بين بعضهم البعض، وأن لا فضل لقوي على ضعيف أو غني على فقير. كانوا أسرى طريقة تفكيرهم القديمة، غير قادرين على تغييرها. لذلك قرروا من شدة عمائهم أن يقتلوا عيسى ويستريحوا منه.

وكان عيسى واعياً أن وقته بات قصيراً. فقد عرف أن الموعد أزف كي يفعل ما أرسله الرب من أجله ويصبح حمل الله الذي يحمل عن العالم خطاياه. وكان شديد الثقة في محبته تعالى، وحكمته، ومشيئته بشكل لم يشهد العالم نظيرا له منذ بدايته.

# الخيانة

ارتفعت وتيرة الضغط بشدة في مدينة القدس، وأدرك حتى المواطن العادي الكراهية التي تكنها النخبة الدينية لعيسى. كان الكل يتحدث صراحة عن رغبة أولئك في قتله لأنه نقض تفاسيرهم للشريعة، ولم يكن شخصه مطابقا للصورة التي طالما رسموها عن مسيح الرب الموعود. لقد كان تفكيرهم منحصرا بشكل ضيق جدا فيما سبق أن تعلموه، فبدوا عاجزين تماما عن التفكير بشكل مختلف.

وكان هناك ضغط من نوع آخر يعصر عقل يهوذا أحد حواريي عيسى الاثنى عشر. فقد أراد هذا الرجل أن يمضي قدما، لا في ملكوت الرّب، بل في سُبُل الطمع البشري. كان الحواريون يهيئون للاحتفال بعيد الفصح الذي جعله الله تذكرة للشعب بالدم الذي وضعه أسلافهم على أسقف الأبواب وأعتابها العليا. وباكرا في ذلك اليوم قرر يهوذا تسليم المعلم. فذهب عند رؤساء الكهنة قبل ساعة الاحتفال بالفصح واتفق معهم أن يسلمهم عيسى في وقت لا يثير تسليمه شغَبا وسط الشعب، مقابل أن يعطوه ثلاثين قطعة من الفضة.

وعندما أزف وقت الاحتفال بالفصح، وجلسوا يأكلون تحدث عيسى عنْ واحد منهم سوف يخونه. فاستولى الذهول عليهم، تساءلوا من يكون، لأن كل واحد مِنْهم خاف أن يكون هو المعني. فأخذ عيسى قطعة خبز وغمسها في مكان ما من الصحفة، مشيرا إلى أن الذي يغمس معه هو الذي يسلمه. وكان يعني يهوذا. لكن أحدا من الحواريين لم يفهم إشارته.

ثم حدث شيء عجيب. فقد نهض عيسى من المائدة، وبدأ يغسل أقدامهم بما فيهم يهوذا. كان يحاول أن يبين لهم مدى المحبة التي كانت تملأ قلبه اتجاههم والتي جعلته يقوم بوظيفة أدنى الخد، وينحني لغسل أقدامهم بما فيها قدما خائنه. لم يخطر ببال أحدهم يوما أن يتضع إلى ذلك الحد ويقوم بمثل ذلك العمل.

بعد ذلك خرج يهوذا، ـــ الذي زاد قلبه قساوة بسبب مقاومته الباطنية المستمرة لتعاليم عيسى ـــ وذهب تحت جنح الليل ليأتي بالحرس والجنود كي يعتقلوا المعلم.

كان العشاء الذي تناوله الحواريون مع عيسى حافلا بالرموز. فقد كانوا يعرفون تاريخ الحدث الذي احتفلوا به. إذ في زمن خلاص أسلافهم من عبودية الفرعون أمر الله أن تذبح كل أسرة حملا وتضع دمه حول باب المنزل الذي تقيم فيه، حتى إذا مر ملاك الربّ ورأى الدم حول الباب عبر عن ذلك المنزل ولم يصب أهله بأذى، لأن الحمل كان فداءاً لأصحاب المنزل. عرف بطرس مغزى ذلك العشاء فقد سبق له من قبل أن يسمع يحيى بن زكرياء يسمي المُعَلِّمَ «حمل الله «وفي الأسابيع الأخيرة أخبره عيسى هو والأخوان يعقوب ويوحَنَّا أنه ذاهب إلى مدينة القدس حيث يُسَلَّمُ إلى أيدي اليهود ويقتل. فلم يفهم تماما ما سمعه. ومثلما رفض بطرس من قبل أن يترك عيسى يغسل قدميه لولا إصرار هذا الأخير، كان عقله يقاوم فكرة عذاب المسيح.

ثم أخذ عيسى رغيف خبز كجزء من الفصح الذي كانوا يحتفلون به، وكسره ثم أعطى حواريه قائلا: «هذا جسدي الذي يبذل لأجلكم «وأخذ الكأس كجزء من الفصح كذلك، وقال: «اشربوا منها كلكم. فإن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد والذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا»

شعر بطرس عندئذ بكراهية شديدة للنخبة الدينية، وزادت نفسه غضبا حين عرف أن الخائن قابع وسطهم. كما كان عقله لا يزال يقاوم فكرة أن يسكب عيسى دمه لأجلهم. ثم بعد أن رنموا جميعا ترنيمة للرب، غادر عيسى المدينة صحبة حواريه قاصدين بستانا يدعى جثسيماني.

هنالك أمر حواريه أن يجلسوا ريثما يبتعد عنهم قليلا ليصلي. لكنه اصطحب معه بطرس، ويعقوب ويوحنا دون الآخرين.وإذ جثا يصلي لاحظ بطرس حزنه الشديد وكآبته. ثم خاطبهم قائلا: «نفسي حزينة جدا حتى الموت ! ابقوا هنا واسهروا معي !»وفجأة نبه يوحنا بطرس قائلا: «انظر إلى المعلم ! يبدو أن عرقه ينزف قطرات دم كبيرة.»

حقا كان من شدة كربه يبدو وكأنه يعاني آلاما عظيمة في جسده. فصراعه الكبير مع ما كان ينتظره من أهوال ساعة موته كان يسبب له عذابا لا يوصف.

لكن رغم ما كان بطرس، ويعقوب، ويوحنا يشعرون به تجاهه، لم يستطيعوا الاستمرار في السهر والصلاة معه. فحالة التشويش والقلق والتعب التي انتابتهم في الأيام الأخيرة أخذت منهم مأخذا جعلهم يستسلمون أخيرا للنوم. وثلاث مرات أيقظهم عيسى ليسهروا ويصلوا، ولكن النوم كان في كل مرة يتغلب عليهم. أما هو فقد استمر في الصلاة كي يسيطر على كآبته وينجز العمل الذي كلفه الله به، ثم فجأة قال: «أيها الآب، قد حانت الساعة! مجد ابنك، ليمجدك ابنك أيضا. فقد أوليته السلطة على جميع البشر، ليمنح جميع الذين قد وهبتهم له حياة أبدية. والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذي أرسلته: يسوع المسيح. أنا مجدتك على الأرض، وأنجزت العمل الذي كلفتني به، فمجدني في حضرتك الآن.»

أزفت اللحظة الرهيبة، ووصل يهوذا إلى البستان يتقدم فرقة من الجنود أتت للقبض على عيسى بأمر من السلطات الدينية. فانتاب الحواريين رعب شديد عندما رأو وميض المشاعل الخاطف في الليل، وسمعوا قرقعة سلاح الجند. ثم اقترب يهوذا من عيسى وقبَّله. وكانت تلك علامته لمن معه كي يتعرفوا على المعلم ويلقوا عليه القبض.

ففكر بطرس أن يفعل شيئا لحماية المعلم. ولم يفهم أن ملكوت الرب ليس من هذا العالم. بل هو ملكوت أبدي في السماء وفي قلوب الذين يقبلون عيسى مسيحاً ومخلِّصاً.

هكذا استل سيفه الذي لمع في ضوء المشاعل، وضرب به عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه وتدفق الدم من رأسه وهو يخر إلى الأرض متألما. لكن عيسى صاح ببطرس «رد سيفك إلى غمده! فإن الذين يلجأون إلى السيف، بالسيف يهلكون ! أم تظن أني لا أقدر الآن أن أطلب إلى أبي فيرسل لي أكثر من اثني عشر جيشا من الملائكة؟»ثم مد يده ومس أذن العبد، فتوقف الدم وعادت الأذن كما كانت.

لم يكن رؤساء الكهنة يريدون سوى عيسى. لذلك سيق إليهم وحده، بينما تفرق الحواريون هائمين على وجههم في الظلام.

# الفداء

سارت الفرقة عبر الوادي متجهة إلى مدينة القدس، حتى إذا بلغت المشارف عكست الأسوار ضوء المشاعل الكئيب. في تلك الليلة لم يبق أحد في الخارج ؛ كان الجميع يحتفلون بعيد الفصح في منازلهم. ولو تطلع أحد إلى الخارج في تلك اللحظة لرأى مشهدا غاية في الغرابة. شرذمة من الحرس الذين يبدو عليهم الاعتداد بأنفسهم، يسوقون أمامهم بعنف رجلا لا يبدي أية مقاومة. فقط يسير معهم منقادا بهدوء إلى حيث يقصدون. لقد أدرك أن ساعته قد حانت فوضع ثقته المطلقة في الرب.

تقدم الجنود عبر الأزقة الخالية متجهين صوب منزل رئيس الكهنة حيث سيحاكم عيسى. كانوا يلطمونه على وجهه المغطى، ويطلبوه منه أن يتنبأ بمن ضربه. ولم يفتأوا خلال ذلك يشبعونه شتما وهو صامت لا ينبس ببنت شفة.

وحين أزف الوقت ليقف أمام الشيوخ كي يحاكموه، وكان الفجر قد طلع وضوء الغبش الخافت يدخل الغرفة. فبدأت المشاعل تنطفئ الواحد تلو الآخر مع تألق ضوء النهار.

لكن ظلاما من نوع آخر كان لا يزال مخيما على عقول القضاة، فقد كان واضحا أنهم يُبَيِّتُون أمرا، وأنهم لم يكونوا يرغبون في محاكمة عادلة. لقد فكروا أن عيسى أصبح تحت رحمتهم أخيراً يفعلون به ما يشاءون. أما جماهير الشعب ممن السهل التلاعب بعقولها كي توافقهم فيما يفعلون.

بدأو بسؤال عيسى: «إن كنت أنت المسيح، فقل لنا«
فأجابهم: «إن قلت لكم، لا تصدقون، وإن سألتكم، لا تجيبون. إلاّ أن ابن الإنسان من الآن سيكون جالسا عن يمين قدرة الله !«فسألوا السؤال نفسه لكن بطريقة أخرى: «أأنت إذن ابن الله؟«كان جزء من سؤالهم يعني: «هل أنت المسيح؟«ولم يكونوا في سريرتهم يرمون إلى أن لله ولدا بالشكل الجسدي البيولوجي المعروف. كانوا يعنون فقط علاقة عيسى الخاصة بالرب، لأنه إذا كان ابنا لمريم دون أن يكون ابنا لزوجها يوسف أو أي رجل آخر، فهو بطريقة ما من الطُرُق ابنٌ لله. كانوا بلعبهم على اللغة يحاولون اقتناص المعلم. وكان كيدهم عظيما.

فأجابهم «أنتم قلتم، إنّي أنا هو« !
فقالوا «أية حاجة لنا بعد بشهادة أخرى؟ فها نحن قد سمعنا من فمه.»
لم تبق أمام المجمع سوى عقبة واحدة هي الحصول على موافقة الحاكم الروماني بيلاطس كي يقتلوا عيسى، لأن القانون لم يكن يبيح القتل دون موافقته. فقيدوه وساقوه إليه.

كانت ليلة عسيرة على الحاكم. فقد بلغته أخبار حركة غير عادية بين حرس الهيكل، إذ غادروا المدينة لفترة ثم رجعوا إليها في آخر الليل. كما بلغه جواسيسه أيضا أن أولئك اعتقلوا أحد المعلمين. فتساءل عن معنى كل ذلك. وما إن استيقظ من نومه حتى تناهى إلى سمعه صخب شيوخ اليهود ينادونه. فأطل عليهم من شرفة قصره.

عندئذ قالوا له: «نريد موافقتك لقتل هذا الرجل !»
ـــ «ماذا فعل؟«
فأجابوه: «لقد وجدنا أنه يضلل الشعب، ويرفض أن يؤدي الجزية للقيصر، ويزعم أنه المسيح، المَلِكُ »

ثم سأل بيلاطس عيسى أسئلة، فلم يجد في أجوبته شيئا يستحق عليه الموت. فرفض في البداية الرضوخ لطلب اليهود. لكن مع تنامي وتيرة الصراع وسط الشعب، انحاز إلى جانب مصلحته، لأنه لم يكن مستعدا أن يفقد منصبه كحاكم أو ربما حياته بسبب فشله في الحفاظ على استتباب الأمن والسيطرة على شرذمة من رجال الدين الحقيرين بالنسبة إليه.

وانتهت المحاكمة. فقد بدأت جماهير الشعب التي استطاع الشيوخ التأثير عليها والتلاعب بمشاعرها الدينية، تطالب بصلب عيسى. إذ كان الصلب هو الطريقة الرومانية في تنفيذ أحكام الإعدام. وبإعطاء بيلاطس موافقته تقدمت خطة الرب شأوا بعيداً في تهيئ «حمل الفصح». لقد استخدم الله أعداء عيسى كي يحقق أمرا كان مفعولا. وإذ ظنوا أنهم يصلبونه كما خُيِّلَ إليهم، فإنهم إنما كانوا في الحقيقة أدوات تنفيذ لخطة وضع الرب تفاصيلها.

مشى الجنود عبر شوارع مدينة القدس يقودون عيسى صحبة بعض المجرمين إلى حيث يصلبونهم جميعا، إذ كانت أحكام الصلب تُنَفَّذ في مقبرة خارج المدينة. وكانت الجموع المحتشدة تنظر إلى عيسى وهو يمشي حاملا صليبه، بين نائح عليه، ومستهزئ به. وكانت نفسه العظيمة تبدو ممتلئة سكينةً خلال كل ذلك، لأن ثقته في محبة الرب كانت مطلقة.

كانت الساعات الثلاث الأخيرة موجعةً جداً بالنسبة إليه. وكانت لحظة شديدة الرهبة عندما أخذ الجنود يدقون المسامير في يديه ورجليه لكي يثبتوه على الصليب. وإذ فرغوا من ذلك ورفعوا الصليب أحس باختناق شديد يأتي على أنفاسه دفعة واحدة ويقتله رويدا رويدا. ثم شعر بعطش شديد لأن حرارة شمس ذلك اليوم كانت لا تطاق.

ثم وقف الحشد ورؤساء الكهنة يشبعونه شتائم، ويتحدونه أن يأتي بآية أخرى من آياته يخلص بها نفسه من العذاب. ووعدوا أن يؤمنوا به إذا فعل. وأخذ أحد الرجُلين المصلوبين معه يطلب منه أن يخلص نفسه ويخلصهم معه إذا كان المسيح حقا. لكن الرجل الآخر أدرك أن عيسى لم يكن يستحق مثلهم ما كان يعانيه من آلام، فقال له في آخر لحظات حياته: «يا عيسى، اذكرني عندما تحل في ملكوتك.» فوعده عيسى قائلا: «اليوم ستكون معي في الفردوس!» لم يفعل ذلك الرجل شيئا سوى أنه اكتفى بقبول وعد المسيح. وقد ثَقُلَ ذلك الإيمان موازينه حتى رجحت على كل ما اقترف من سيئات خلال حياته.

لكن عذاب عيسى الجسدي والوجداني لم يكن شيئا مقارنة مع العذاب الذي عاناه من جرّاء القطيعة التي حدثت بينه وبين الخالق في اللحظة التي حمل فيها خطايا العالم على كاهله. إذ لم يحدث أبدا أن انقطعت الصلة بنيهما. لذلك صرخ في غمرة وعيه بتلك القطيعة المؤقتة: «إلهي، لماذا تركتني؟»

ثم هبط ظلام كثيف على المنطقة برُمَّتها، وكأن الطبيعة حزنت أيضا لما حل بحمل الله الذي عانى العذاب والموت لأجل أن يحيا الآخرون. وزلزلت الأرض زلزالها وانشق ستار الهيكل الذي يفصل الجزء الداخلي عن باقي الهيكل نصفين من الأعلى إلى الأسفل، ولم يَنْشَق من الأسفل إلى الأعلى حتى لا يقال إنسان فعل ذلك، وحتى يتضح أن الله رفع منذ ذلك اليوم الحجاب بينه وبين عباده.

لقد ظل ذلك الستار على مدى مئات السنين تذكرة بالخطيئة التي فصلت بين الله وبين البشرية. ثم فجأة ها هوذا ينشق ويصبح مكان التقدمة الذي كان حكراً على رئيس الكهنة مرة كل سنة فقط، مُشَرعاً إلى الأبد في وجه الجميع، حيث أصبح طريق الرب الواسع مفتوحا لمن شاء السير فيه.

وأرى أن مسك ختام هذا الفصل هو هذه الأبيات الرائعة من قصيدة ناصيف اليازجي «الإيمان المسيحي «التي يتحدث فيها بدقة وإسهاب عن شخص عيسى المسيح وتعاليمه حيث يقول:

هذا مسيح اللّه فادينا الذي
صلبتْه طائفة اليهود كمجرم
بطبيعةٍ بشريةٍ قد أُلِّمتْ
وطبيعة اللاهوت$ لم تتألّم
حمل الجراحَ بنفسه متعمداً
حتى تكون لجرحنا كالمرهمِ
قد كان ذلك منه طوعاً وَهْوَ قد
وافى له يفدي به الدمَ بالدم

# الضيف العجيب

كان الرجلان يتهاديان في مشيتهما باتجاه قرية عمواس التي لا تبعد إلا قليلا عن مدينة القدس. وكان الغبار الذي تثيره أقدامهما يرتفع ويسقط ببطء في شكل غيوم صغيرة وراءهما. لكن الغبار كان آخر شيء يمكن أن يشد انتباههما في تلك اللحظة.
كانا منخرطين في نقاش عميق، مركزين فكرهما أكثر على ما يقوله أحدهما للآخر. وكان عقلهما يعج بالأحداث الغريبة والأنباء العجيبة. فأحداث الصباح حولت كآبتهما العميقة إلى فرح جميل أشرق فجأة كضحكة وليد. كما أن الأنباء التي ترددت هنا وهناك انتشرت بين الناس كشمس أضاءت فجأة أطراف السحب وحولتها إلى جزر ملتمعة في السماء. كان يضج في قلبيهما طوال الطريق حبور عميق يشبه حبور العصافير وهي تستقبل أولى نسمات الصباح.

لكن شيئا ما كان يكبح جماع تلك الفرحة الوليدة، إذ كان يعلو ملامح الرجلين ارتباك وهما يحاولان ربط أحداث الصباح مع الوقائع المأساوية التي كانت مدينة القدس مسرحا لها قبل أسبوع.

فجأة شعرا بوجود شخص ثالث بينهما. فاستدارا، فإذا رجل يقترب ويسألهما: «عمّ أنتما تتحدثان؟»فتوقفا وقد كسا وجهيهما الحزن. ثم قال له أحد الرجلين واسمه كليوباس: «أأنت وحدك الغريب النازل في مدينة القدس، ولا تعلم بما حدث فيها في هذه الأيام؟»فعاد الغريب يسأل: «ماذا تعني؟«

فأجاب كليوباس «أعني ما حدث لعيسى الناصري الذي كان نبيا مقتدرا في الفعل والقول أمام الله والشعب كله، وكيف سلمه رؤساء الكهنة وحكامنا إلى عقوبة الموت وصلبوه. ولكننا كنا نرجو أنه الموشك أن يفدي إسرائيل. واليوم هو اليوم الثالث منذ حدوث ذلك.

على أن بعض النساء منا أذهلننا، إذ قصدن إلى القبر باكرا ولم يجدن جثمانه، فرجعن وقلن إنهن شاهدن رؤيا: ملاكين يقولان إنه حي. فذهب بعض الذين معنا إلى القبر فوجدوا الأمر صحيحاً على حد ما قالت النساء أيضا. وأما عيسى فلم يروه!
فوبخهما الغريب قائلا: «يا قليلي الفهم وبطيء القلب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء ! أما كان لابد أن يعاني المسيح هذه الآلام ثم يدخل إلى مجده؟»ثم أخذ يفسر لهما ما كتبه موسى في التوراة وما أخبر به الأنبياء جميعا بخصوص المسيح. ثم نبههما إلى أنّ مشكلتهما مثل الجميع لم تكن الجهل، بل العجز عن فهم كلمة الله.

لقد قرآ مرارا الآيات التي تتحدث في كتاب الله عن المسيح. لكن أفكارهما المسبقة كانت تقف حاجزا يمنع عنهما باستمرار النفوذ إلى حقيقة معنى تلك الآيات.

وحين اقتربوا من عمواس، تظاهر الرجل الغريب بأنه قاصد مكانا أبعد،فاستضافاه إلى قريتهما وألحّا عليه في القبول قائلين: «انزل عندنا فقد مال النهار واقترب المساء.«فقبل دعوتهما وذهب معهما.

في ذلك المساء أعد الرجلان الطعام وجلسا حوله، ثم طلبا من الضيف أن يصلي ويباركه كما هي عادتهم. فأخذ الخبز وشكر الله وبارك وأعطاهما. وإذا بالذهول يشل حركاتهما عندما شاهدا في يديه آثار الجروح التي تركتها المسامير، فبادرا بعضهما البعض قائلين «إنه عيسى !«وبدا كأن غشاوة انقشعت فجأة عنْ عيونهما. لكنه للتو اختفى من أمامهما. فبدآ يسألان بعضهما البعض: «ألم يكن قلبانا بالفعل يثبان فرحاً وبهجة وهو يحدثنا طوال الطريق، ويفتح بصيرتنا على كل ما قالته الكتب بخصوص المسيح؟«وفجأة بدأت أجزاء الصورة تتجمع في ذهنهما جزءا جزءاً. وأصبحا يدركان هوية المسيح الحقيقية، وطبيعة المهمة التي أرسله الله من أجلها، والتي تكمن أساسا ليس في تحريرهم من الرومان، بل من سلطان الخطيئة.

ورغم أن الوقت كان متأخرا لم يستطيعا احتواء فرحتهما. فتحرُّرُهما المفاجئ من سلطة الجهل جعلهما يستشعران بحدة البهجة التي تصاحب عادة الظفر بشيء نادر. فحملا مصباحا وقفلا في الليل عائدين إلى مدينة القدس. وهناك وجدا الحواريين مجتمعين وهم يقولون «حقا ! إن عيسى قد قام وقد ظهر لسمعان«

فأخبراهم هما أيضا بما حدث معهما في الطريق إلى عمواس، وكيف أنهما عرفا عيسى من أثر جروحه عند كسر الخبز. وفيما هما يخبران بذلك، ظهر عيسى نفسه في وسطهم وقال: «السلام عليكم

«لكن رغم أنهم عرفوا بقيامه من الموت لم يبارحهم إحساسهم بالذعر والخوف، حيث فكروا أن الأشباح وحدها هي التي تظهر كذلك.

فبادرهم عيسى بالقول: «ما بالكم مضطربين؟ ولماذا تنبعث الشكوك في قلوبكم؟ انظروا يديَّ وقدَمَيَّ، فأنا هو بنفسي. المسوني وتحققوا، فإن الشبح ليس له لحم وعظام كما ترون لي.» وإذ قال ذلك أراهم يديه وقدميه. لكن لم يبد أنهم صدقوا ما يقوله بعد سبب الفرحة وصدمة المفاجأة. فسأل إن كان عندهم ما يؤكل. فناولوه قطعة سمك مشوي أخذها أمامهم وأكل. وحين انتهى قال: «لقد حدثتكم قبل أسبوع عن كل هذه الأمور. أخبرتكم أن كل ما كتب عني في التوراة والزبور وجميع كتب الأنبياء لابد أن يتم»

ثم فتح أذهانهم ليفهموا الكتب. فبدا لهم أن حقيقة الله التي اتضحت أخيراً أمامهم مغايرةٌ تماما لما كانوا دائما يعتقدونه. فنبوءة الله بخصوص عيسى قد تمت بشكل يبدو عكس ما كان الجميع يتوقع.

وواصل عيسى شرحه قائلا: «هكذا قد كتب، وهكذا كان لابد أن يتألم المسيح ويقوم من بين الأموات في اليوم الثالث، وأن يبشر باسمه بالتوبة وغفران الخطايا في جميع الأمم انطلاقا من مدينة القدس، وأنتم شهود على هذه الأمور. وها أنا أرسل إليكم ما وعد به أبي. ولكن أقيموا في المدينة حتى تلبسوا القوة من الأعالي»

ثم اقتادهم عيسى إلى خارج المدينة إلى بيت عنيا، وباركهم رافعا يديه. وبينما هو كذلك، انفصل عنهم وأصعد إلى السماء. وظلوا هم يتتبعونه بنظراتهم حتى اختفى في الأعالي، وظهر هناك ملاكان خاطباهم قائلين: «يا أهل الجليل ! لماذا تحدقون هكذا في الأعالي. إن عيسى هذا الذي أُصعد في السماء سيعود بنفس الطريقة إلى الأرض».

إذن أُصعد عيسى إلى السماء ولكن البشرى بقيت بأنه سوف يعود من جديد. سوف يعود عندما يأزف الوقت الذي حدده الله ليقيم ملكوته في أرجاء الأرض. لكن في أثناء ذلك كان ينتظر الحواريين عمل كثير.

# مجيء الروح

مرت عشرة أيام على صعود عيسى إلى السماء. وصادف أن كان الحواريون مجتمعين في إحدى الغرف. لكنهم لم يكونوا يشعرون بالخوف مثلما كان الحال قبل قيامه من الأموات. كما أن وعده: «أقيموا في المدينة حتى تُلبسوا القوة من الأعالي «لم يكن قد تم بعد. فجأة، بينما هم كذلك امتلأت الغرفة التي كانوا فيها بهدير ريح وعاصفة، وبدا كأن لسانا من نار قد حلَّ على رأس كل

واحد منهم. فامتلأوا جميعا بالروح القدس، وبدأوا يتكلمون بلغات بشرية عديدة مثلما منحهم الروح، فهي كما قال الشاعر الصوفي عبد الجبار النِفَّري:

لغاتها ناطقات العز قاهرةٌ
يجري بها لطفها في أذن واعيها

وتردد صوت ذلك الهدير في كل أرجاء المدينة. فتوافدت جموع كثيرة من الناس إلى المكان الذي كان الحواريون مجتمعين فيه. وكانت مدينة القدس في ذلك الوقت من السنة ممتلئة بالزوار الأتقياء الذين كانوا يفدون عليها من بلدان مختلفة. فاستولت عليهم الدهشة عندما سمع كل منهم الحواريين يتكلمون بلغة البلاد التي ينتمي إليها.

كان كل هؤلاء الزوار القادمين مما يعرف اليوم بإيران والعراق وتركيا وسوريا ولبنان ومصر وليبيا وإيطاليا قد سمعوا لغاتهم هناك في ذلك اليوم. فاعتقد البعض منهم أن الحواريين سكروا لأنهم بدوا فرحين، ولأن اللغات بدت غريبة للبعض. ولم يكن يخطر ببالهم أي سبب آخر، إذ أن الامتلاء من الروح يشبه في كثير من الأحيان صعود حُمَيَّا الخمر الحادة. لكنهم لم يكونوا فاقدين الوعي ولا كانوا يتصرفون كالحمقى.

بدا كَأن ما سبق أن حدث ببابل قديما يحدث لبرهة من جديد في تلك الغرفة، لكن بشكل معكوس، حيث بات بإمكان كل الحاضرين أن يفهموا كلام الروح بغض النظر عن خلفيتهم الثقافية واللغوية. فقد حلت بركة الرب هنالك محل لعنته على بني البشر.

عندئذ نهض بطرس وأوضح للتو أن الحواريين لم يكونوا سكارى، وإنهم إنما يتكلمون بوحي من الله. وما شاهدته الجموع في ذلك اليوم لم يكن سوى انسكاب الروح الذي وعد به الرب على لسان النبي يوئيل. ثم عنف الناس على ما اقترفوه ضد مسيح الرب إذ قبضوا عليه وصلبوه وقتلوه. وأشعرهم بفظاعة إثمهم. كما بين لهم أنهم لم يصلبوه ولم يقتلوه كما توهموا وإنما شبِّهَ لهم ذلك، لأنه انبعث أكثر حياة ممَّا كان.

ثم أعاد على أسماعهم ما سبق أن أخبرهم به عيسى، وشرح لهم أن موت هذا الأخير، ودفنه وقيامته كانت كلها تحقيقا لما أخبر به الله تعالى في التوراة والزبور وجميع كتب الأنبياء بخصوص المسيح. وإذ سمع الحاضرون ذلك ،شعروا عميقا بالإثم. وأدركوا أنهم خطاة يستحقون الموت، وأن غضب الله قد حل عليهم كما حل على كل الذين لم يدخلوا بعد تحت رحمته، وأن لاشيء من أعمالهم يمكن أن يرضي قداسة الله المطلقة. لذلك سألوا بطرس ماذا يفعلون.

فأجابهم أن الخلاصَ يتمّ بالحرص على ثلاثة أمور هي: أولا، التوبة. ومعناها أن يشعروا حقا بالندم على كل ما اقترفوه من إثم، ليس فقط بقولهم أن ما فعلوه كان محزنا، أو الإحساس بالأسف لإنفضاح أمرهم. ولكن بالاقتناع الراسخ أن ما فعلوه كان خطيئة، ثم محاولة الوقوف من أفكارهم وأفعالهم موقف الرب منها.

ثانيا، أن يتعمدوا مثلما كان يحيى بن زكرياء يعمد الناس، أي بواسطة الغطس في الماء (إما غطس عموم الجسد أو الاكتفاء بسكب الماء على الرأس) وترمز هذه العملية إلى الموت والدفن ثم القيامة مثل المسيح من الموت، قيامةً يرمز إليها الخروج من الماء. ويعبِّر الناس من خلال ذلك عن

موت سيرتهم القديمة، والاعتراف بأنهم كانوا خطاة، وأيضا عن الحياة الجديدة التي بعثهم الله فيها. كما أن العمادة طقس اعتراف على رؤوس الأشهاد بأنهم تحولوا عن سبيل الشيطان إلى سُبُل$ الله الفسيحة، وأنهم كفُّوا عن محاولة إرضائه بواسطة أعمالهم وتقبلوا الخلاص نعمة منه وحدهُ.

ويعبّر الكاتب الطبيب إبراهيم فارس في كتابه سبيل المسيح عن العلاقة الوطيدة بين التوبة والمعمودية بقوله: «كانت الفكرة الرئيسية في كرازة المعمدان... أن يدعو الناس ليرجعوا إلى طاعة الله وشريعته طاعةً حقيقيةً ويتركوا الشرَّ بالتوبة. وعبر عن هذه التوبة بالمعمودية، فغطس الناس في نهر الأردن القريب. والكلمة «المعمودية «تقابل كلمة يونانية بمعنى «تغطيس «وقد استخدمت لغسل الأيدي بالماء أو لصباغة الثياب بتغطيسها في ماء ملوّن. وكان التغطيس في الماء رمزاً لتغيير داخلي في اتجاهات حياة الناس وقلوبهم».

ثالثا، أن يؤمنوا. لكن أغلب الحاضرين كانوا مؤمنين بالله. فماذا كان بطرس يعني بالإيمان؟ إنه لم يكن يعني فقط الإيمان بالله، لأن الشياطين تؤمن به كذلك وترتعد خوفا منه.

كان يطلب منهم أن يؤمنوا بمسيحه عيسى، ويضعوا رجاءهم فيه، وأن يؤمنوا بأن موته على الصليب كان لأجل خلاصهم، إذ كانوا مثل إسحاق بن إبراهيم محكومين بالموت، ففداهم تعالى بموت مسيحه الكريم كما فدا ابن إبراهيم بالكبش من قبل. لم يعد من خلاص بواسطة الأعمال، لأنه أصبح هبة من الله. فقد قام تعالى بدلا عن البشر بكل شيء، وصارت رغبته سبحانه أن يؤمن كل إنسان أن مسيحه الكريم عيسى إنما مات لكي يحرر البشرية من نير الخطيئة والموت.

وحَدَث في ذلك اليوم أن حوالي ثلاثة آلاف شخص سمعوا بطرس وآمنوا بعيسى وعمله العظيم. فارتفع عدد المؤمنين من 120 إلى أكثر من 3000 بدأوا يجتمعون بشكل منتظم مع بعضهم البعض، وينذرون أنفسهم للقيام بأربعة أمور أساسية هي: الاستماع إلى الرسل، وتقاسم الحياة والممتلكات مع بعضهم البعض، والاحتفال بعشاء الرب لتذكر مسيحه، وأخيراً الصلاة.

فشعر جميع أتباع عيسى بفرح كبير وأجْرَوْا آيات عظيمة. وقد بلغت محبتهم للمسيح ولبعضهم البعض أن باعوا أملاكهم ومقتنياتهم وتقاسموا ثمنها على قدر احتياج كل واحد، ووزعوا أيضا على الفقراء.

لكن السؤال الذي ينبغي على كل واحد أن يطرحه على نفسه الآن هو: هل تاب بالفعل إلى الله، وتعمد، وآمن أم ليس بعد؟ هل ما يزال يحاول نيل مرضات الله بواسطة الأعمال الحسنة أو الحسنات التي يقوم بها، أم أنه وضع أخيراً ثقته المطلقة فيما قام به عيسى عندما مات لأجله على الصليب؟ لأن نور الله قد أشرق، وأتضح أن لا أحد يستطيع إرضاءه وإيفاء معايير قداسته. ووحده عيسى فعل ذلك لأجل الجميع.

---

إبراهيم فارس، سبيل المسيح، لبنان: دار منهل الحياة، 1986، ص. 29

# رحلـة النـور

- إعداد
نور الدين العربي

دار الجيل

Originally published in English
as
Firm Foundations - Creation to Christ

All Rights reserved
New tribes Mission
2001

جميع الحقوق محفوظة
Al-Kalima
الطبعة الثانية
2001 م
بيروت: البوشرية ـــ شارع الفردوس ـــ ص.ب.: 8737 (11) ـــ برقياً دار جيلاب
هاتف: 689950 ـــ 689951 ـــ 689952 / فاكس: 689953 (009611)
E.MAIL: daraljil@inco.com.lb.
القاهرة : هاتف: 5865659 / فاكس: 5870852 (202)
تونس: هاتف: 922644 / فاكس: 923634 (2161)

جميع الحقوق محفوظة
Al-Kalima
الطبعة الأولى
2001 م

بيروت: البوشرية ـــ شارع الفردوس ـــ ص.ب.: 8737 (11) ـــ برقياً دار جيلاب
هاتف: 689950 ـــ 689951 ـــ 689952 / فاكس: 689953 (009611)
E.MAIL: daraljil@inco.com.lb.
القاهرة : هاتف: 5865659 / فاكس: 5870852 (202)
تونس: هاتف: 922644 / فاكس: 923634 (2161)

---

PKSL/End:

---